حسين

# المعذبون في الارض

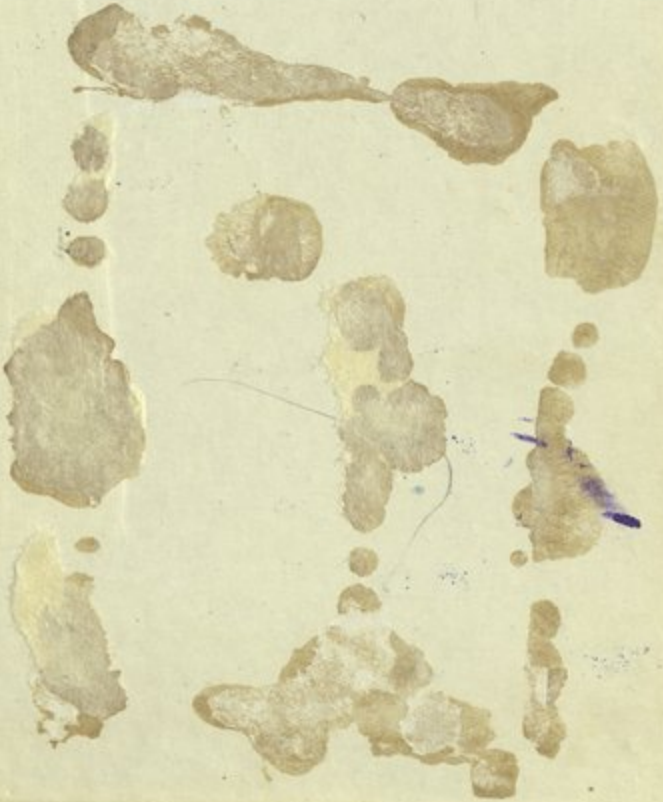

[illegible]

# المعذبون في الأرض

تأليف

892.78
Ha3924mu
C.1

## الدكتور طه حسين

69794

الناشر
المكتبة العصرية - صيدا

المطبعة العصرية : صيدا
١٩٤٩ - ٩

الى الذين يحرقهم الشوق الى العدل ،
والى الذين يؤرقهم الخوف من العدل
الى أولئك وهؤلاء جميعاً
أسوق هذا الحديث .

الى الذين يجدون ما لا ينفقون
والى الذين لا يجدون ما ينفقون ،
يساق هذا الحديث .

٤٢٨١

١

أبو بشلفوط

أبو كرشي

# صالح

اذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئني ؛ فان فعلت ذلك فأنت ابني حقا . قال الصبي وهو يبتسم لأمه التي كانت تحدثه هذا الحديث وهي تداعب خده : فان لم أفعل فابن من أكون ؟

هنالك وجمت أم الصبي شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : إنك لطويل اللسان كثير الخصام ، ثم دست في يد الصبي قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : اذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الاخيرة فأنبئني ، وان فعلت ذلك فلك مثلها قبل ان تنام . قال الصبي وهو يقضم السكر قضما : أما الآن فنعم . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ؛ فقد ألم بها ضيف لهم خطر ومكانة في الاقليم ، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدي ، وانما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في ذلك المساء بالتكبيرة الاخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل الى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الاصناف قد هيء ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛

فقد فت الخبز في طبق كبير ، واعد المرق وتم اعداد الارز ، وقطع الثوم قطعاً توشك ان تشبه الذرات . ولكن اعداد هذا الصنف يجب الا يتم إلا في اللحظة الاخيرة حتى لايشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل في الجو ، ولا يبرد الارز فيفسدما القي عليه من السمن . من اجل هذا كله لم يكن بد من ان يتسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى اذا رفع صوته بالتكبيرة الاخيرة اسرع الى امه فأنبأها ، واسرعت هي الى هذه الاخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والارز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها منذ حين . فاذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الاصناف الاخرى على مهل وريث ، فليس في الابطاء بها بأس ولاجناح ـ ولكن الصبي لم ينبيء امه بشيء لأنه لم يسمع شيئاً ، وانما شغل عن التكبيرة الاولى وعن التكبيرة الاخيرة بأمر ذي بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل اليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الابطاء حين يلم به الضيف . وقد هم غير مرة ان يضرب احدى يديه بالاخرى ليعلم اهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره ان يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار غفلة أو اهمال ، فمضى في حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب احدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، واسرعت الى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هي الا لحظة حتى كان الضيف الى مائدتهم يأكلون ويلغطون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأي ، قد اتخذ مرقبه في زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو اليها فينفق الساعة والساعات في جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ،

يجد في ذلك تسلية ولهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى . وقد جلس في زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم اذا أتم التهام قطعة السكر ان يقبل الى قطع الحديد فيعبث بها في رفق مانحاً الشيخ وضيفه احدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهـــم ، حتى اذا سمع التكبيرة الاخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسل الى أمه فألقى اليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر في زاويته ويمضي في قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فاذا رفيقه صالح ماثل أمامه يداعب كتفه باحدى يديه ويقبض بيده الاخرى على طاقة من زهر الحقول يقدمها اليه باسما . وقد نظر الصبي الى صالح فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره اكثر مما ينبغي ، وقد انشق عن كتفيه فظهرتا منه نابيتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبي أكثر مما يخفي ، كأنه أسمال قد وصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع وليقال ان صاحبه لا يمضي به متجرداً عريانا . ثم رفع الصبي رأسه الى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران الى ما حولهما ، تنخفضان حينا الى هذا الحديد الملقى على الارض ، وترتفعان حيناً الى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك الى عناقيد الكرم هذه التي تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده الى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : لم ارد ان اعود الى دارنا دون ان أمر بك واحمل اليك هذه الاكمام التي لم تتفتح بعد ، خذها اليك وضعها في اناء فيه شيء

من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم اقبل عليها فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة . لم يقل الصبي لصالح شيئا وانما اخذ منه زهراته واعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ، واشار اليه ان يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد اخذ صالح قطعة السكر فاطال النظر اليها ، والتحديق فيها ، وقربها من فمه ثم ابعدها عنه ، ثم نظر اليها نظرة قصيرة ، ثم دسها في فمه بين خده واضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس واخذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وانما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وانسى الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذي كان يجب أن يحمله الى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل او قصير الا صوت اخته تدعوه من وراء الباب الى العشاء .

وقد فرغ الشيخ واصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم فهـــوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من بنيها وبناتها الى طعامهم وافتقدت صاحبنا ذاك المهذار فارسلت أخته تلتمسه في مظانه .

ولما سمع صوت اخته تدعوه ابطأ في الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدري كيف يخلص من رفيقه او لم يكن يجب ان يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له في صوت خافت حزين . اجب ، انك تدعى الى العشاء . قال الصبي لصالح : وأنت هل تعشيت ؟ قال صالح سأتعشى حين ابلغ الدار . ونهض متثاقلا وادبر يريد ان يخرج ، ولو استطاع لاقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي الى أمه وفي يده تلك الزهرات . فلما رأته أنكرت نسيانه لما امرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن

اليه . قال الصبي وفي صوته اختلاجة خفيفة : حملهن الي صالح بن الحاج علي . قالت امه : ولم تعطه شيئا ؟ قال الصبي : اعطيته مابقي لي من قطعة السكر . قالت امه : وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ اتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ قال الصبي مضطربا : هممت ولكني لم اجرؤ . قالت امه : فامض في اثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج الى ان يعدو ولا الى ان يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً امام الدار قد استند الى الحائط ومد بصره أمامه وقدم احدى رجليه واخر الاخرى يريد ان يمضي وتنازعه نفسه الى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه اجاب مستخذيا : هأنذا ماذا تريد ؟ قال الصبي : اريد ان تبقى لنتعشى معا . ولم يقل صالح شيئاً ، وانما تحول الى رفيقه وسعى في اثره هادئا مطرقا كأنه الكلب يتبع صاحبه اذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلق الباب من دونه حتى رأى احدى اخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسيا مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الاطباق فيها من كل اصناف الطعام التي قدمت للضيف . وابت اخت الصبي ان تشارك الاسرة في عشائها وآثرت ان تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى اذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي الى امه راضياً . فقالت له وهي تمسح رأسه : اذا زارك رفيق لك في وقت العشاء فلا ينبغي ان تدعه ينصرف دون ان تدعوه الى مشاركتك في الطعام . ثم قالت له بعد صمت قصير : هل تعلم ان صالحاً انما حمل اليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ قال الصبي : لا اعلم . قالت امه : لقد رأى الاضياف حين اقبلوا ، ورأى ما حملوا من الطرف والهدايا ،

وعلم ان سيكون في الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد ان يصيب منه شيئا . واتخذ ازهاره هذه تعلة يلم بها في الدار ليقدمها اليك . قال الصبي . لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره و كتفاه ! قالت امه : اذا خرجت من الكتاب غداً فاحمله على ان يصحبك ؛ فان عندي من ثيابك ما يكسوه .

ثم انصرفت الى بنيها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها انسيت ان تحرك الارز حين القته في الماء وهو يضطرب من الغليان ، واوشك هذا اللون من الوان الطعام ان يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الارز ألا يلتئم ولا يتماسك وان تتفرق حباته وتمتاز . وتثني على تلك لانها رفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامدا تقطعه الملاعق قطعاً ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التي لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وانما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الافواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وانها لتتحدث الى بناتها هذه الاحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطهي والتي كان ابناؤها يسمعون لها فيغرقون في ضحك متصل ، واذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ اجابت امه : الم اقل لك انه احس ان سيكون عندنا خير كثير فأراد ان يصيب منه ؟ قال الصبي : فاني ارى الاضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، واعرف ان عند جارنا خيراً كثيراً فلا اسعى الى اترابي من ابنائه ولا احاول ان اصيب مما عندهم . قالت : لأنك لست في حاجة الى ذلك فلست محروماً . قال الصبي : فصالح محروم اذن ؟ قالت امه متضاحكة ، وقد اخذ اخوته من حوله يضيقون بلجاجته والحاحه : لأن اباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على ابي

صالح . قال الصبي : ولماذا ؟ قالت امه : انك لمكثار . ثم التفتت الى كبرى بناتها وهي تقول : خذيه الى مضجعه ، فقد تقدم الليل وآن له ان ينام .

واصبح الصبي فغدا على كتابه كما تعودان يفعل خمسة ايام في الاسبوع . وقد يخطر للقارىء ان يسألني عن هذا الصبي ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما اسرته ؟ ومن عسى ان يكون ؟ ولكني اجيب القارىء ان خطرت له هذه الاسئلة كما كان الكاتب الفرنسي ديديرو يجيب قراءه حين يخيل اليه انهم يسألونه او يهمون ان يسألوه عن بعض الامر من قصصه — اجيب القارىء بأنه يسرف على نفسه وعلي بهذه الاسئلة التي قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة منسقة حسنة البناء ملتئمة الاجزاء يأخذ بعضها برقاب بعض ، كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكني لا احاول ان اضع قصة فاخضعها لما ينبغي ان تخضع له القصة من اصول الفن كما رسمها كبار النقاد ؛ فقد يجب لتستقيم القصة ان يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث او الذين يحدثون هذه الحوادث ، والذين تعرض لهم الخطوب او الذين يبتكرون هذه الخطوب .

لا اضع قصة فاخضعها لأصول الفن . ولو كنت اضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الاصول ؛ لأني لا أومن بها ولا اذعن لها ولا اعترف بأن للنقاد مهما يكونوا ان يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا اقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته ان يدخل بيني وبين ما احب ان اسوق من الحديث ، وانما هو كلام يخطر لي فأمليه ثم اذيعه ، فمن شاء ان يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ، ومن شاء ان يرضى عنه بعد فليرض مشكوراً ، ومن شاء ان يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً ايضاً . والمهم هو ان يخطر لي الكلام وان امليه وان اذيعه ،

وان يجد القارىء ما يشعره بأن له ارادة حرة تستطيع ان تغريه بالقراءة وان تصده عنها ، وان يشعر القارىء ايضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف في الادب وأن ينكر وأن يقبل من الادب وأن يرفض ؛ وليس هذا كله بالشيء القليل . وما احب ان يظن القارىء أني أتحكم فيه أو أتجنى عليه ؛ فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم في التجني ، وأشدهم للقارىء حباً وإكباراً . ولكني لا احب ان يتحكم القارىء فيّ ولا أن يتجنى عليّ ، ولا أن يخضعني لذوقه ، كما لا احب أن اخضعه لذوقي . ويجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارىء وبيني حين أكتب أنا ويقرأ هو . ولو أني استجبت لهذه الاسئلة فبينت موطن الصبي وبيئته وعرفت اسرته إلى القراء لطال بي الحديث اكثر مما احب أن يطول . وليس في الحديث صبي واحد ، بل فيه إلى الآن صبيان ، احدهما صالح هذا الذي يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبي الذي وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من حق القارىء ان اسمي له هذا الصبي الثاني مادمت قد سميت له الصبي الاول ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم ابيه وصبي آخر لا يعرف من امره شيئاً . والواقع أني حين أخذت في املاء هذا الحديث لم اكن اعرف لهذا الصبي الثاني اسماً ، وما زلت اجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنيني ، وانما كانت الاحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعنيني . واكبر الظن ان صالحاً هذا لم يوجد قط ، لانه يملأ [redacted] المصرية من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيراً ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر

هي بلد البؤس والشقاء . وانا أزعم أن قارىء هـذا الحديث مهما يكن لا يستطيع ان يقضي يوماً من دهره او ساعة من يومه دون ان يرى صالحاً هذا الذي لا يجد ما ينفق ، والذي بود ان تتاح له الوسيلة ليجـد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذي لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه أمين ، وعلى أنه كان يختلف الى الكتاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جداً من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الاود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لانه يملأ [redacted] المصرية . وإذا أسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فموجود من غير شك ؛ لاننا نراه ولا نكاد نرى غيره لأنه عظيم الخطر ، فهو هـذا الصبي الذي لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة أو على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولاينبغي ان يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ؛ لأن من حقه أن يتناول الطعام في إبانه ، وأن يـأخذ بقسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هـذا الصبي أو هذا الفتى الذي اتفقنا على أن اسمه أمين موجود من غـير شك ؛ لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وانما هو شخص ممتاز يمكن أن يحصى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً في كل قرية وفي كل مدينـة . وهو من اجل ذلك موجود ؛ لأن عدده محـــدود ولأننا نستطيع احصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارىء وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألني في صوت فاتر ساخر : لقد أردت أن

تتجنب الاطالة بالاجابة على اسئلتنا ، فهل انت إلا ممعن في الاطالة بهذا الكلام الكثير الذي لايغني ولا يفيد ! معذرة يا سيدي القارىء الكريم ! بل ان هذا الكلام الكثير يغني كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلقى في كل يوم الف صالحاً وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً ؛ قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولايلتفت اليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن اليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية ولا تلتفت اليه كما انك لا تلتفت إلى الهواء الذي تتنفسه والنور الذي تهتدي به . وترى أميناً أو أمينين أو امناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيها خير ان ألفتك الى صالح هذا البائس المسكين الذي ملأ مصر نعمة وخيراً وملأت مصر حياته شقاء وبؤسا ، أم أن احدثك عن أمين وموطنه وبيئته واسرته لتستقيم القصة وتستوي رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التي رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران في نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وان الفتك إلى صالح هذا الذي وجد وأسرف في الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدري ! لعلي حينما الفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما احب أن تغضب ولا أن تثور ؛ فما أردت ، وما ينبغي ان اريد إلى ايذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت في يوم من الايام زهرات الحقول وسيلة الى خير تصيبه كما فعل صالح ؛ وانما أردت ان أقول إن في حياة كل واحد

منا نحن كثرة المصريين شيئا من صالح ؛ فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان. وما اقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولاحرمانا! وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التي تأتي من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذي يمزق البطون والاعدام الذي يمزق الثياب ويظهر من ثناياها الصدور والظهور والاكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل باشياء اخرى ليست جوعاً ولا اعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والاعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . واني لأعرف قوماً كثيرين تمتلىء ايديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً اي بؤس وشقاء اي شقاء ويتخذون زهرات الحقول او هذا الزهر الذي تصنفه ايدي الحسان تصنيفاً في الحواضر والمدن وسيلة الى شيء يصيبونه عند من يكونون أقل منهم غنى واضيق منهم ثراء .

مهما يكن من شيء فقد غدا الصبي الذي اتفقنا على ان اسمه امين على كتابه كما تعود ان يفعل اذا كان الصباح ، فلقي اترابه وشاركهم في الجد والهزل وفي الدرس واللعب . حاول ان يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ الى مداعبة اللدات والاتراب . وكان قد انسي قصة صالحة ولم يذكر الا انه سيعود معه آخر النهار الى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار الى ان يذكر صالحاً في كثير جداً من القلق والخوف ، ثم في كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم في كثير جداً من الالم والحزن فقد سمع سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير . هل تفقدت الاختام؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك كلها ؟ قال العريف : نعم الا ختم صالح بن الحاج علي فانه قد ضاع ، وما اشد حاجة هذا الفتى الى التأديب فانه لا يطيع امراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع

العصر الا لينغمس في الماء .

وهنا يسأل القارىء - وما اكثرما يسألني القراء كما كانوا يسألون الكاتب الفرنسي الذي ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارىء عن هذه الاختام ماهي؟ وماذا يمكن ان تكون ؟ ولا بد من ان اجيبهم ؛ فاكثرهم من ابناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا الى الكتاب ولم يعرفوا قصة الاختام والماء، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من الخطوب . كانت قصة الاختام هذه تمثل في الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويجب الصبية والفتيان ان يتبردوا بماء النهر او بماء القناة اذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون الى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا في الماء ، وينصرفون الى العبث والسباحة والاستباق في العوم . وكانت الاسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب الى سيدنا ان يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدري ما هو . فاذا كاد الضحى يرتفع اقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التي كانت تسمى الختم وغمسها في مادة حمراء وختم بها افخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة في ماء النهر او ماء القناة . وكان زوال الآية التي يتركها الخاتم في فخذ الصبي او الفتى دليلا على انه قد خالف الامر وقارف هذا الاثم العظيم . فلم يكن بد اذن من تفقد هذه الاختام في كل يوم وتجديدها اذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبي او الفتى اذا محيت آية الختم على فخذه قبل الاوان . ولست ادري ايعرف القارىء او لايعرف ان العريف في الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما ان سيدنا قد كان رمز السذاجة

والقسوة . ولكن المحقق ان الصبية والفتيان كانوا يقترفون اثمهم هـذا العظيم في غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون اليه من هذه الطرف اليسيرة التي يحملونها من بيوتهم يسرقونها للعريف احيانا ويصرفونها عن انفسهم اليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه او للعريف . وقد طال على العريف ابطاء صالح عليه بالوشوة . ولم يسأل نفسه أكان هذا الابطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى امره لسيدنا ؛ ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من اترابه . ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة حباً لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ، فلم يكد يسمع العريف البصير يغري به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : ان العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذي فقد ختمه ، وانما فقده الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً الى النهر او الى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون اليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل اليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة ان اديرت الفلقة على ساقي صالح وعمل السوط في رجليه حتى دميتا ، ثم اديرت الفلقة على ساق امين ومس السوط رجليه مساً خفيفاً لم يدمها ، ولكنه علم امين ان الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن في جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وامين واتخذوهما عدوا ، وجعلوا يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من العبث فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع امين إلى داره لا يكاد يحسن المشي على رجليه ، ولكنه

وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد أم امين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم اهدت اليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكد صالح يراه حتى جن جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسي الفلقة التي دارت على ساقيه والسوط الذي مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن الى الماء ويغسلن نفسه فيه ، وليضيعن آية الختم الجديد ، وليتعرضن لوشاية العريف ، وغضب سيدنا فماينبغي ان يلبس هذا الثوب الجميل دون ان يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر . قالت له ام امين : لا بأس عليك ، فسأطلب من سيدنا ان يعفيك من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبي فرحاً مرحاً محبوراً . وقال امين لأمه : ألا تنبئينني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ولم يضربني انا إلا عابثا ؟ قالت : لأن صالحاً اضاع الختم وخالف الامر وانغمس في الماء فكان ذنبه عظيما يستحق عقابا عظيما . فأما انت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت امام اترابك ما قلت في العريف ، فكنت خليقاً ان تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبي : وانا مع ذلك لم اقل الا الحق . قالت أمه وهي تضحك : فان الحق لا يقال في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل الى ان اعرف المواطن التي يقال فيها الحق والمواطن التي يقال فيها الباطل ؟ قالت امه وهي تضحك : ستعرف هـذا كله اذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف الى حديدك هذا الذي في زاويتك تلك والعب به ، وتحدث اليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب امين الى حديده فلعب به ، وتحدث اليه ، واحدث من الضجيج والعجيج ما شاء الله ان يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى الى امه يسألها : ما بال صالح لا يحمل الى العريف مثل مايحمل اليه

غيره من الطرف والهدايا ؟ قالت امه : لان صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدي الى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه ومايدفع به شر العريف؟ قالت امه وقد اخذت تضيق بالحاحه : لقد عدت الى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل علي . ولكن الصبي لم يمض لشأنه وانما مضى في الاثقال على امه ، فلم تتخلص منه الا حين أظهرت له الغضب وانذرته انذاراً كاد يبكي له، ثم رحمته فوضعت في يده قطعة من النقد وهي تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبي مبتهجاً : سأشتري بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر الى صالح ليؤديه الى العريف اذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن امينا لم يدفع نصف القرش الى صالح ، لأن صالحاً لم يذهب الى الكتاب من غده . وقد وقع في نفس الصبي شيء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين أنتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن ان صالحاً لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث ان تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والاتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش هذا السخف الذي يحبه الصبية وعبث مع اترابه حول المسجد ، وعاد معهم الى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك عريفه في انه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوما ، ثم اقبل ذات صباح كئيباً محزوناً لا يكاد قده يستقيم من الضعف . ونظر أمين فاذا هو في ثوبه ذلك البالي القذر . وقد تلقى امين رفيقه مبتسما له حفياً به مستنبئاً عن غيبته

تلك التي طالت . وهم صالح ان يجيب ولكن صوته احتبس في حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت امين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر ان الصبية يمكن ان يبكوا دون ان يمسهم سوط سيدنا او دون ان يعنف بهم الآباء والامهات ليؤدبوهم بالايـــدي حيناً وبالكلام احيانا . ثم استبان لأمين من امر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه الى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذي اهدته أمه لرفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملح لهذا الرفيق البائس .

خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التي كانت ترقص على اغصان التوت وتنشر في الجو الحانها العذاب . وانغمس في القناة كأحسن ما تعلم ان ينغمس ، وعام في القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الاتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحا مبتهجا مغتبطا ، وقد امتلأت نفسه رضا وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الرضية وقلبه السعيد على جسمه جمال غريب لفت اليه اصحابه واترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحا كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائـــع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطا . ثم دخل في ثوبه الجديد وكاد السرور أن يدفعه الى شيء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره الى بعض القصد وامسكه في بعض الاعتدال ، فرضي عن نفسه في دخيلة ضميره ، وارتفعت اليه ابصار اصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس الى داره يكاد يخطر في ثوبـــه الجديد وقد طوى ثوبه البالي القذر وحمله بين ذراعه وجنبه متأذيا متكرها لاحتماله ، ولو استطاع لتركه في بعض الطريق ، ولكنه كان اذكى من ذلك

قلبا واصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالي الى امرأة ابيه لعلها تستطيع ان تصنع منه شيئاً .

وما اشك في ان القارىء سيقف عند هذا الموضوع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألني انا : الم يكن من الخير ان نعرف من اول القصة ان صالحا قد فقد امه وانه كان يعيش يتيما ينعم بما يختلس من حب ابيه سراً ويشقى جهرة بما يصب عليه من بغض هذه الضرة التي قامت مقام امه في البيت ؟

ولست اشك في ان القارىء سيضيف الى هذا السؤال ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ فيقول في نفسه : لو ان الكاتب سلك في قصته هذه الطرق المهدة والسبل المعبدة التي رسمها النقاد للقصة لعرف الينا صالحاً في اول حديثه ولأنبأنا بموت امه وتزوج ابيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التي لم نكن في حاجة اليها . ولكني اعيد على القارىء ماقلته آنفاً من اني لا اضع قصة ، وانما اسوق حديثاً ، واضيف الى ذلك ان الذين يسوقون الاحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التي يبينون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان الى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذي يلهج به النقاد ولو اني بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وامين ومن يتصل بصالح وامين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات اشد الضيق ولقال بعضهم : تجاوز حديث الطوفان وصل الى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج الى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن انبأ القارىء بأن صالحاً يتيم وبأن امه قد ماتت ؟ الشيء الذي لا اشك فيه ولا ينبغي ان يشك فيه القارىء هو ان صالحاً لم يكن يتيما ، وان امه لم تكن ميتة ، وانما كانت حية اكثر مما ينبغي ان يحيا

الناس ، ان صح ان تكثر الحياة وتقل . وسواء رضي القارىء ام لم يرض فقد كانت ام صالح حية من غير شك ، لأني انا اريد ذلك ، وليس يعنيني ما يريد غيري من الناس ؛ فانا الذي اخترع صالحاً من لا شيء ، او اخذ صالحاً من عرض الطريق لأن صالحاً وجود ولأنه غير موجود . موجود في حقيقة الامر ؛ لأننا نراه في كل ساعة وفي كل مكان ، وغير موجود في حقيقة الامر ايضا لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس في الوجود . والشيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، كما يقال . فأنا اذن وحدي - كما كان يقال ايضا - اعرف من امر صالح ما لا يعرف غيري من الناس ، واقرر ان امه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وانما تركت الدار لأنها طلقت . وانا استطيع ان اصنع بامه بعد هذا الطلاق ما اشاء : استطيع ان ادعها مطلقة تعمل خادماً في بعض الدور ، واستطيع ان اجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، واستطيع ان اسخرها لعمل من هذه الاعمال التي يعيش منها امثالها من البائسات ، فقد اسخرها لبيع الخضر ، وقد اسخرها لبيع الفاكهة ، وقد اكلفها ان تصنع الخبز في بيوت الاغنياء واوساط الناس ، وقد اكلفها ان تغسل الثياب في هذه البيوت ، وقد اجد لها ما اشاء من الاعمال غير هذا كله ؛ لأني حر فيما احب ان اسوق الى القارىء من حديث ، ولان القارىء مضطر الى ان يتلقى حديثي كما اسوقه اليه ، ثم هو حر بعد ذلك في ان يقبله او يرفضه ، وفي ان يرضى عنه او يسخط عليه

والواقع من الامر أني لا اكلف ام صالح شيئاً من هذه الاعمال التي ذكرتها ولا افرض عليها شيئا من هذه الخطط التي رسمتها ، لأني على حريتي في ان اصنع بها ما اشاء ، اوثر الامانة في رواية التاريخ وقد حدثني التاريخ بأن خديجة ام صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن

الحاج علياً أبا صالح لم يكن ظالما ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحا بعام او عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئا كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة ام صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء ، فاضطر هذا الرجل البائس الى فراقها ، واستبقى ابنه صالحا في كنفه . وحاول ان يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع ، لأن خطوب الحياة تكلف امثاله ان يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن ان يعمل الرجل لكسب القوت وان يفرغ لتربية ابنه . وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع إلا ان يعيش كما يعيش الناس ، فاضطر اذن ان يتخذ لنفسه امرأة تربي له صالحا وتمنحه غيره من الولد . واتخذت خديجة لنفسها زوجا يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذي احتجزه ابوه لأنه اشترى القاضي بأرطال من البن . وماذا تريد ان اصنع وقد كانت الحياة تجري على هذا النحو في ذلك العهد القديم !

وليس أدل على ان أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته من ان خديجة قد اضطرت زوجها الثاني الى ان يطلقها بعد ان وهبت له غلاما اسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لتلك الاسباب التي فارقها من اجلها زوجها الاول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء . ولكن حظها في هذا الطلاق الثاني كان حسنا أو سيئا لا ادري ! فما اكثر ما تختلط امور الناس على الاذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلي قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشيء المحقق هو ان خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها سعيداً تربيه كما تشاء او

كما تستطيع . ولم تربه كما شاءت او كما استطاعت، وإنما ربته الطبيعة كما احبت . وقد زهد الازواج في هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل، فباعت الفجل حيناً والترمس حينا آخر ، ثم اختلط الامر عليها فجنت جنونا هادئا رفيقا ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت « خديجة المعفرتة » وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو في ظل هذا الجنون الهادىء المخيف كان ابنها صالح ينشأ في ظل هذه الضرة التي اظهرت حبا له وعطفا عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فاظهرت بغضا له وضيقا به . وكذلك نشأ احد الاخوين في حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر في رعاية الحب المجنون .

حدثني أيها القارىء العزيز اكان من الخير ان اعرض عليك تفصيل هذا كله في اول هذا الحديث فتضيق بي وبصالح وبأمين وبالسفر الذي يحمل اليك هذا الحديث ، ام كان الخير ان اذهب الى المذهب اليسير الذي اخترته وان احدثك بكل شيء حين يحين التحدث به اليك ؟ انا اعرف انك ستعاند وستماري ، وستذهب في عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . اما انا فقد ذهبت المذهب الذي اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذي آثرته ، وانتهيت منذ حين الى ان صالحا قد استحم في القناة ودخل في ثوبه الجديد وعاد الى امرأة ابيه مسروراً بهذا الثوب الذي لبسه مهديا ثوبه القديم الذي ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة ابيه نظرت اليه من رأسه الى قدمه ، فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم ادارت بصرها في الحجرة ، فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم ،

يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر الى صالح في ثوبه الجديد ، ثم اعادت النظر الى ابنيها في ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها اليها وقد ارتسمت في نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ، فان هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقي من ابيه ومن امرأة ابيه نكراً ، فضرب ضربا مبرحا مرض له اياما ، وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورد الى ثوبه القديم البالي ، وعجز الفتى عن الذهاب الى الكتاب من غده ، واقام في الدار ملقى في زاوية من زواياها يهمل في ازدراء ويمرض في عنف ، حتى إذا استطاع ان يمشي على قدميه سعى الى الكتاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة امين .

كذلك عرف امين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشيء كيف يقضي في هذه القصة . لو انه لم يتحدث الى امه عن ذلك الثوب البالي الذي كان صالح يلبسه لما اهدت امه الى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت امور صالح على ذلك البؤس الهادىء المطرد . فهو إذن قد اراد ان يحسن الى رفيقه فأساء اليه . ايلوم نفسه في ذلك ام يلتمس لها المعاذير؟ والحق انه لم يلم نفسه او يعذرها ، وإنما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن امه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارىء يخطىء أشد الخطأ ان ظن أن الحياة تجري دائما على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائما ما الف الناس من التفكير والتقدير . فليست الحياة اقل مني ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وإنما الحياة

تمضي كما تريد هي لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وامين من الكتاب مساء ذلك اليوم . فلم يرعها حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال الا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضها بعضا ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعها وروعها : جثة قد شطرت شطرين والقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمها وتنشر في الفضاء ضحكا عريضا . فأما الجثة فكانت جثة سعيد اكلها القطار ، كما كان يقال في تلك الايام . واما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة الى الجزع ويدفعها الجنون الى الضحك . واما صالح فنظر الى اخيه ونظر الى امه وهم ان يقف ولكنه آثر ان يمضي مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست ادري ما صنع الرفيقان ، ولكني اعلم ان ابا امين راح الى اهله حين تقدم الليل وهو يقول محزونا : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، اكل احدها سعيداً مع الظهر واكل الآخر صالحا مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنيها في يوم واحد. ثم التفت فرأى ابنه امينا مذعوراً يكاد ينقد من البكاء ، فمسح على رأسه وقبل بين عينيه وقال له في صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب اذا كان الصبح ، لأنك ستذهب الى المدرسة الابتدائية في عاصمة الاقليم .

قال امين بعد ان تقدمت به السن واصبح رجلا ذا خطر : ما زلت ارى تلك الجثة قد القي عليها ثوب غليظ ، ولكني انظر الى وجهها فلا ارى وجه سعيد وانما ارى وجه صالح ؛ ومع ذلك فلم ار صالحا حين اكله القطار .

## ٢

# قاسم

كان يسعى في ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق . ولو قد رفع رأسه الى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه الى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه الى الارض ، وانما كان يمضي امامه يمد بصره كأنما يريد ان يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وانما كان اشبه شيء بقطعة من الجماد قد صورت في صورة انسان . ولو قد عدا او اسرع الخطو لجاز ان يشبه بسهم حي يشق هذه الظلمات المتكاثفة امامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو وانما كان يسعى هادئاً مطمئناً ، لا يتردد في سعيه كأنما تدفعه الى امام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شيء ، وانما يمضي الى غايته كما يمضي الزمان الى غايته ، في أناة ومهل وحزم .

ولو كان شاعراً او راوية للشعر او على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الاصبع الوردية التي تشير الى ظلمة الليل بأن تنجلي ، او لتصور سهماً ضئيلاً من الفضة النقية يمضي في هذه الظلمات المتكاثفه ، فتنهزم امامه هذه الظلمات متهالكة ، وتساقط امامه نجوم السماء في الافق الغربي كأنما يدعو بعضها بعضاً الى الفرار . ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق من وراء النهر وسمع

صوتا قد اقبل من ورائه في الجو ضئيلا نحيلا ماضياً امامه الى الشرق ، كأنما يريد ان يلقي بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولاً وينبسط عرضاً حتى احس كأن الجو كله قد اخذ يمتلىء نوراً وغناء . فأما النور فكان يوقظ الاشياء وينبئها بمطلع الفجر . واما الصوت فكان يوقظ الاحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ولم يخرج من اعماق ذاكرته ادباً قديماً او حديثاً ؛ لأنه لم يكن من هذا كله في شيء ، ولم يكن يقدر ان شيئاً من هذا كله يمكن ان يوجد او يخطر لأحد على بال . وكل ما في الامر ان اخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : انك تسعى في ظلمة الليل فتطيل السعي ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها في قلبك او بلسانك ؛ فانها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة ، ثم اقرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » . فكان لا يخرج من بيته الحقير المتضائل ساعيا الى النهر في ظلمة الليل ، الا ترددت هذه الآية في صدره تردداً متصلا ، فملأت ضميره امناً وراحة وهدوءاً . فاذا أحس نبأة من قريب او من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه الى لسانه واندفع بها صوته الى الفضاء ، فأمن كل كيد وجنب كل مكروه .

وكان في تلك الليلة يمضي امامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التي تتردد فيه . فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وانما كف عن التلاوة وسأل نفسه مسرعاً : ايمضي الى النهر امامه ، ام يرجع الى المسجد وراءه حتى اذا ادى الصلاة مضى الى النهر ، فاستخرج منه ما يسوقه الله اليه من رزق ؟ ولم يشك طويلا حين القى على نفسه هذا

السؤال ، وانما استدار الى المسجد فأدى صلاته لم يكلم احداً ولم يكلمه احد ، ثم استأنف سعيه الى النهر هادئاً مطمئناً وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر في شيء ، وانما هو قطعة جامـــدة قد صورت في صورة انسان تمضي امامها في اناة ومهل ، لا تنظر في السماء ولا تنظر في الارض ، ولا تلتفت الى يمين ولا الى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ، وانما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت الى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق . فلم يكن قاسم شاعراً ولا راوية للشعر ، ولا محباً لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط ان لليل جلالا وان للنهار جمالاً ! فلم يكن قاسم الا رجلا جاهلا بائساً مريضاً ، يلتمس في النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته امونة ، وابنته سكينة في بيته ذلك الحقير ! ولولا ان قاسما كان يرده في صدره هذه الآية ، ويؤدي صلاة الفجر إن ادركته وهو في طريقه الى النهر ، ويفكر ايسر التفكير واهونه في بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه واهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئا غريزيا خالصا يشبه سعي النمل والنحل الى ارزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد نهكه المرض ، وكاد يسل جسمه سلا ، ومن اجل ذلك لم يكن يجد ولا يكد ولا يضطرب في شؤون الحيـــاة كما يضطرب غيره من الناس ، وانما كان ينفق ايسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى اسرته الصغيرة . يسعى الى النهر بين حين وحين ، فان ساق الله الى شبكته شيئا من السمك باعه في غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى في كثير من الفتور والسأم ما يصلح امره وامر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله الى البيت فيلقيه بين يدي

امونة القاء ، ويسعى متخاذلا متهالكا الى حصير بال رث قد القى في ناحية من نواحي البيت ، فيمتد عليه ضئيلا نحيلا يكاد السقم يفنيه افناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق كلمة ولا يفكر في شيء حتى تهيء امرأته ما يمكن ان تهيء من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون . وما اكثر الليالي التي لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر في مكانه مثبتا لا يأتي حركة ولا ينطق بكلمة ، وفي نفسه ما فيها من حسرة والم ان استطاعت نفسه ان تحس حسرة او الما . وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمل جسمه اكثر مما يحتمل ؛ ونهض وهو لا يقدر على النهوض وسعى وهو لا يقدر على السعي ، وبلغ النهر فوجده كريما بالقياس الى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس اليه ، فعاد الى بيته مكدوداً محزونا ، صفر اليدين ، والقى الى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى الى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئاً .

هنالك كانت امونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار او تلك تعين اهلها من امرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ، وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع ؟

في ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد ان ادى الصلاة فسعى الى النهر مطمئن القلب هادىء النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد ان تصور الراحة والرضا فلا تستطيع ان تصور الا حزنا هادئا فيه شيء من امل يسير . وقد صادف النهر كريما في ذلك اليوم ، وساق الله اليه رزقا حسنا ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب في قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له

الابتسامة التي كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع في عينيه الصغيرتين نور متهالك ضئيل . ثم احس انه لن يستطيع ان يحمل صيده الى امد بعيد ، فأقام امامه ينظر اليه حيناً والى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه الى السماء بالشكر حيناً ، وينتظر ان يمر به بعض الاصحاب من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد الى بيت العمدة . فقد استقر في نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل انه لا ينبغي ان يباع في السوق ، وانما ينبغي ان يحمل الى بيت العمدة هذا الرجل الموسر الذي يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل الى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل ان تستيقظ الاسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت ان تبدأ به مع الصباح من كل يوم واخذت تكنس فناء الدار وترده الى هيئته التي ينبغي ان يكون عليها ، فتصفف الكراسي في اماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التي كانت تمتد في صدر الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ الصورة ويشرب القهوة ويتحدث اليها حديثا يطوله حينا ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة او ريث . وان الفتاة لفي ذلك واذا بالباب يطرق طرقا خفيفا ، فاذا فتحته رأت قاسما حزينا تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والامل ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على هذه الدكة في صدر الفناء . وقال قاسم في صوته الخافت المريض : ما أشك في ان السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحبه ان ينصرف ، ولكن الفتاة القت في يده شيئا فقبله راضيا وولى

محبورا . وهم قاسم ان ينصرف ولكن الفتاة اشارت اليه ان اقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت اليه بقليل مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو في ذلك واذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود ان يقبل في كل صباح متكلفا شيئا من العنف في دفع الباب امامه رافعا صوته بدعاء ربه الستار ، يريد ان ينبيء الاسرة بمقدمه . حتى اذا اغلق الباب وراءه في غير رفق سعى الى دكته في صدر الفناء ، ولكنه لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعا وجلا ، قد ملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا في اي عضو من اعضائه يظهر ؛ فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان في الهواء ، وفمه مفتوح عن اسنان متحطمة وصوته يتردد في حشرجة بين جوفه وشفتيه . ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الدغر فيدفعان الى ضحك عال متصل . ويثوب سيدنا الى نفسه وقد امن بعد خوف وظن ان فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له الكيد . حتى اذا علم آخر الامر ان احداً من اهل الدار لم يهيىء له كيداً ، وانما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة في غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيىء له مجلسه ، تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسي وابى ان يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغني عن قهوته تلك التي تعود ان يشربها متى فرغ من الترتيل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : ان حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتما مني واضحكتماني من نفسي ، ولكن الله قد اراد بي خيراً ؛ فلن اتكلف لأهلي طعاما منذ اليوم . انبئي السيدة يا ابنتي بأن هذه السمكة قد ملأت قلبي رعبا وبأني انتظر منها نصيبي حين يتقدم النهار ، وما اشك في

انكم ستتخذون منها الوانا مختلفة ، وما ارضى ان ترسلوا لي لونا واحداً وانما يجب ان اصيب من هـذه الالوان جميعا . وانصرف الشيخ الضرير راضيا عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذي يسر الله فيه رزقه حسنا دون ان يسعى اليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الاسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعـلى تضاحك الصائد والفتاة وعـلى قراءة القرآن ، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت ان تستقبله ، يعمل بعضها ويكسل بعضها ، والصائد في مكانه لا يبرحه لعله نسي نفسه ، او لعله ينتظر ثمن صيده ، او لعله قد انس الى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسنا ووضـع في يده قروشا ، وخرج الصائد راضيا مغتبطا ، ولكنه لم يمض الى داره وانما استدار وذهب الى السوق .

والقاريء يستطيع ان يلاحظ اننا قد انتهينا الى مفرق من مفارق الطرق في هذا الحديث ، فأنا استطيـع ان اذهب معه الى السوق التي ذهب اليها قاسم الصياد . وانا استطيع ان اذهب الى هـذه الدور ، التي يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيهـا القهوة ، ويجاذب اهلها اطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقي فية من اقداح القهوة المرة . ثم اذهب معه الى الكتاب الذي سينتهي اليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس ان تزول . وانا استطيع ان اترك قاسما يشتري في السوق ما يشاء ، وان اترك سيدنا يطوف بالدور وينتهي الى الكتاب ، وان اقيم في الدار لا ابرحها ، وانما اتبع السمكة الى حيث نقلت من الفناء واستقرت في مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا

الصف الطويل من الكوانين التي تختلف سعة وضيقا وارتفاعا وانخفاضا واشهد اقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها وجيئتها لما يراد ان يتخذ منها من الوان الطعام . ولكني لن اقيم في الدار ، ولن اتبع قاسما ، ولن اتبع سيدنا ، وانما ساخرج من الدار وسأنحرف الى الشمال فأسعى حينا ، ثم انحرف الى الشمال مرة اخرى ، فأسعى قليلا ، ثم انحرف الى يمين فأمضي امامي خطوات ، ثم اجد في أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين ، لا من الحجارة ولا من الطوب الاحمر ولا من اللبن ، وانما اتخذت من الطين الذي سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شيء من القش والتبن ، ورص بعضها الى بعض ، حتى ارتفعت في الجو ارتفاعاً ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الارض ثم القي عليها شيء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب في فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها باباً ، فهذا البيت هو الذي أوثره على السوق ، وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حديث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لاني أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار بائستين كما استقبلتا الليل بائستين . أحسنا قاسماً وهو ينهض متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل من ورائه ، وينغمس انغماساً رفيقاً مستأنياً في ظلمة الليل يرجو ان يبلغ النهر وان يجد فيه رزقه ورزقها . احسنا نهوضه في جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئاً . ولم تنهضان ؟ وما عسى ان تفعلا ؟ ولم تقولان وماعسى أن تقولا؟ مضى قاسم وأقامتا واشتملها الليل ساكنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعيا.

وأسفر الصبح لهما ساكنتين قائمتين كما أسفر له ساعيا الى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس ، فجلست كل واحدة منهما في مكانها واجمة لا تدري ما تصنع ولا تعرف ما تقول . وظلتا تنتظران قاسما لعله يعود اليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة اذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئا من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا الى الجارات .

وسكينة فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفي جسمها تناسق وفي قدها اعتدال يظهران للناظر دون ان يتكلف التماسها . فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها الا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومها في ذلك الصباح لم يتصل الا قليلا . وقد قالت أمونة لابنتها فجاءة في صوت فاتر منكسر : ألم تنهضي وتتركي البيت بعد ان خرج أبوك الى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكني عدت بعد لحظة . قالت امونة : فاني قدرت ذلك وانتظرت ان تعودي بعد لحظة ، ولكن هـــذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج في التماسك ولكني أكرهت نفسي على البقاء مخافة ان يفطن الينا الجيران . وما زلت انتظرك وأنتظرك حتى اسفر الصبح واذا انت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين في مضجعك حريصة على الا احس مقدمك كما كنت حريصة على الا احس انسلالك من البيت . فالى اين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث امها مرفوعة الرأس

اول الامر ولكنها لم تلبث ان انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الاعصاب والعضلات ان تمسكه فانكب نحو الارض انكبابا . ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئا ، جامدة لا تأتي حركة . وقد اعادت امها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث . هنالك تنمرت امونة وظهر في وجهها شيء من الجد ، لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف . وقالت لابنتها في صوت مكظوم : ستنبئينني الى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الاعلى الى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف النخل كانت تصطنعه في تقليب الخبز وانضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وهي تقول لها في صوتها المكظوم : ستنبئينني أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع بين كتفيها في عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها الى الوثوب لولب في الأرض ، أو جذبها الى الوقوف سبب في السقف . على ان وقوفها لم يطل ، فقد اخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، واذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها الى وجهها وهي تتلوى من الالم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ، فاذا هي لم تبق امرأة ، وانما استحالت الى جنية ثائرة ، وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها في غير رفق وتدفع بقدميها وجهها في غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقي امونة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها في صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت اذا لم تكظم صوتها ، ولم تضبط نفسها ، ولم

تنبثها في هدوء وصدق الى اين ذهبت ، وماذا صنعت ، حين انسلت من البيت في ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ولهـــذا الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل امها واستوت جالسة ، وظهر في وجهها هدوء حازم عنيد ودفعت يد أمهـــا عن فمها وقالت في صوت مكظوم كصوت امها ولكنه ينم عن التحدي والعناد : تريدين ان تعلمي الى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت في ظلمة الليل ؟ فاعلمي اذن أني لقيت زوج عمتي غير بعيد من مزرعته ، واقمت معه ما اقمت ، ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر : أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ اراضية انت بما عملت ؟

وجمت امونة شيئاً ثم قالت مستخذية : ومتى لقي الفتيات ازواج عماتهن في جنح الليل ؟ انك لتلقينه متى شئت في وضح النهار . قالت الفتاة : القاه في وضح النهار والقاه في ظلمة الليل ، ذلك شأنه وشأني ، وما انت وذاك ؟ فانه لا يعنيك من قريب ولا من بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة . ولكن الفتاة قالت لامها في صوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عني او استغيث بالجيران ! قالت امونة وقد سقط العود من يدها : الجيران باللفضيحة . باللعار ! ثم انحنى اعلاها على اسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب . وظلت الفتاة في مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على انها لم تلبث ان فرقت بين اجفانها فانهل على وجهها دمع غزير ؟

وفي القارىء حب للاستطلاع اقل ما يوصف به انه يضايق الكاتب

ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره الى الوقوف حين كان يؤثر المضي في كتابته ، او يضطره الى الاستطراد حين كان يفضل الا يتجاوز الموضوع الذي يعرضه او يقول فيه . والقارىء لا يكفيه ما انبأته به من ان هذه الفتاة قد تغفلت امها وانتهزت غيبة ابيها وانسلت من بيتها في ظلمة الليل ، واعترفت لامها آخر الامر وبعد ما ذاقت من عذاب بأنها خرجت لغي لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها اثم بغيض .

القارىء لا يكتفي بهذا ، وانما يجب ان يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمتها . ولولا اني ارفق بالقارىء ولا احب ان اشق عليه ولا ان ارده خائباً حين يجب الاستطلاع ، لمضيت في الحديث كما بدأته ، ولأبيت الانحراف الى نشأة هذه الصلة البغيضة ؛ لأن الحديث عنها بغيض . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب ان يذهب ماشاء من المذاهب في كتابته ، ولكن من حق القارىء ايضاً ان يفهم في وضوح وجلاء ما يقدم اليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارىء ان قد كان لقاسم اخ شيخ ضرير اقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغي ان يعرف القارىء الآن ان قد كانت لقاسم اخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ وابتسمت لها الدنيا ، واستقامت لها الامور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، واصاب جسمها ذبول ، والم بجمالها ذواء حين دخلت في الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خلقة ان تضطر الى بؤس كبؤس اخيها الصياد او اخيها الضرير لولا انها صادفت الحاج محموداً وكان رجلا يقيم في طرف من اطراف المدينة ، فيه بقية من

قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الارض يستغلها في استنبات البقول . وقد لعبت الايام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم احس حاجة الى شيء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى الى الحج وعاد وعليه زي من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر في حياة مطمئنة لا يظهر احدمنها على بأس . وكأن غريزته كانت اقوى من ارادته ، وكأن ميله الى اللهو كان اقوى من طموحه الى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة او دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا الى المجازة والطمع ، فكان يمشي في المدينة زائغ الطرف يدير عينه يميناً وشمالا ، ويقصر بصره الى هنا ويمد بصره الى هناك ، وكان كل شيء في تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على ان في نفسه طموحاً الى الشر ونزوعاً الى ما لا يستحب من الامر . وكان قاسيا على اخي امرأته يرمقه في ازدراء ويتحدث عنه في استخفاف ، ولا يمد اليه يداً بالمعونة ولا يظهر اشفاقا عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء . ولكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة في قوة وجمال وفي بؤس وشقاء ايضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وانما اشتهى جمالها وطمع في محاسنها ، وابتغى اليها الوسائل . وما اكثر وسائل الاغراء للذين يبهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جداً من الامل الى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون في المدن والقرى يحملون هذه السخافات التي تطمح اليها نفوس البائسين من اهل المدن والقرى : يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذي يمضغ في الافواه ويسميه اهل القرى « لبانا » ، ويسميه المترفون من اهل المدن « لادنا » ،

ويحملون حقيبة اخرى فيها صنوف من الحرز وضروب من الخواتم والاساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفن بهذه السخافات ، يتخذن من الحرز عقوداً ، ويزين ايديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والاساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه في افواههن ويحدثن في مضغه بين حين وحين صوتا يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين .

وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشيء من هذه السخافات بين يدي رجل من هؤلاء الباعة ، قد اطاف به النساء والفتيات من اهل المدينة يأخذن منه سخفه الرخيص ويدفعن اليه نقدهن القليل . وسكينة تنظر وتشتهي ولكنها لا تستطيع ان تأخذ شيئا ، لانها لا تستطيع ان تدفع شيئا . فرق الحاج محمود لهذه الفتاة او مال قلبه الى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئا قليلا ادى له ثمنا ضئيلا وملأ قلب الفتاة به فرحا وافعم به نفسها سروراً ، وافاض على وجهها بهجة زادتها حسنا الى حسن وروعة الى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع في قلب الحاج محمود هذه الفتاة الغافلة حب اثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين الى هذه الاسرة البائسة . بدأ بالحديث الرفيق وثنى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا ان الحاج محموداً كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة وكان قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد في تردد بين ما يحمل اليهما من خير وما يثير في نفسيهما بعض الشك ، ولكن الحاجة كانت اقوى من الحيطة : والشيء الذي ليس فيه شك هو ان الفتاة قد اطمأنت الى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة : فأكثرت التردد على دار عمتها ، ثم اتصلت

المودة بينها وبين هذا الرجل الذي كانت تسميه عمها .

وهنا يحتاج القارىء فيما اظن الى ان امضى به في هذا الحديث البغيض الى غايته ، فهو يستطيع ان يبلغها وحده . واحسبه قد اطال الانتظار لقاسم هذا الذي ذهب الى السوق وفي يده او في جيبه قروش العمدة . فلينظر اليه ان شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، واقبل يسعى الى بيته الحقير متباطئا ثقيل الخطو ، وفي نفسه شيء من رضا ؛ فسيطعم امرأته وابنته مما لم تتعودا ان تصيبا منه الا نادرا حين يكرم النهر او حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ، ومهما يسيء اليهم الضيق ، فان في فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على ان يجدوا حين يأكلون مما كسبت ايديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق اليهم دون ان يكسبوه او يحتالوا فيه . فقد كان قاسم في تلك الساعة يشعر بشيء من هذه الكرامة ، ويريد ان يعتد بنفسه ، لولا انه كان اشد بؤسا وتضاؤلا واذعانا للعلة من هذا الاعتداد : وهو على ذلك كان يسعى متباطئا ثقيل الخطو ، ولم يكن يسوءه ان يلحظه الجيران كلما دنا من بيته ، وان يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وان يقولوا في انفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والاشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله في لحظ العيون واضطراب الوجوه . ويكاد قاسم يجد في نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود . ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصاعد الى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان

وشفتاه تنفرجان ، وهم صوته الخافت ان يصبح اهله بالخير ، وهمت يداه المتهالكتان ان تضعا بين يدي زوجه ما حملا اليها من طعام ، وهم ان يداعبها في بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فاذا امرأة تساقط دموعها غزاراً وهي جامدة هامدة ، واذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقا لا تحب ان يسمع . واذا قاسم واجم اول الامر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر المسألة ، واذا امرأته ترد عليه في صوت مختنق متقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، واذا يداه تسترخيان ، واذا هذا الخير الذي كان يحمله حفيا به حريصا عليه ، يسقط الى الارض في غير نظام ، واذا عيناه تنطفئان ، واذا شفتاه تلتقيان ثم تمتدان ، واذا هو يسعى الى حصيره ذاك البالي فيجلس عليه متهالكا ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتي من بعيد جداً ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاماً لم نتعرض لهذا الحزي ، ثم يعيد : لهذا الحزي . ثم ينقطع الصوت حيناً ثم يعود اشد خفوتا ، وأعظم بعداً ، وهو يقول : ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات . ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ليس هو نائما وليس يقظان ، وانما هو شيء بين ذلك . وقد همت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر اليه ثم تعرض عنه ، وتظل في مكانها هامدة جامدة ، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها من البكاء . والفتاة ملقاة في مكانها لا هي بالحية ولا بالميتة ، وانما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والجمود . ولم ير الجيران في ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران في ذلك اليوم دخاناً يخرج من ذلك البيت ، ولم يشم

الجيران في ذلك اليوم رائحة الطعام الذي تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلاً مرهقا ، فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتثرت في السماء نقط ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحا ، فانسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت اليه أحد ، وغمس نفسه في ظلمة الليل وجعل يمضي فيها متباطئاً وإن أراد الاسراع ، متثاقلاً وإن كان في نفسه خفيفا . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، قد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر في الوقت نفسه بشيء من خوف لأنه قد استحال كله خوفا .

وقد تجاوز المسجد في طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلاً يمتد طولاً وينبسط عرضا ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن يمتد طولا وينبسط عرضا ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الاشياء وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة . ولكن قاسماً لم ير ضياء ولم يسمع غناء ، قد أظلمت عيناه وسدت اذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضي أمامه ويمضي مترفقا ، حتى أحس أنه يخطو في فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئا ، ولم يحسه شيء ، وانما مضى إلى الغيب كما تمضي في كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك في أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور ربها ، وفي أن المدينة امتلأت حياة ونشاطا ، وفي أن الناس اضطربوا في أعمالهم بما يضطرب في قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفي أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود اليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل . ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الامل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الايام . ولكن القارىء ليس في حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ؛ فأيسر شيء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله فسيرى فيها «أمونات وسكينات» كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالالوف ، وإنما يحصين بمئات الالوف وقد يحصين بالملايين ، تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل اليهن رضا ولا غبطة ولا أملا في الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر في اطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التي تنتثر في السماء ولكنه لا يحمل اليهن راحة ولا أملا في الراحة ، وانما يدفعهن إلى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به في النهار من حياة بغيضة ، لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ، ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين اتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضي الليل والنهار إلى غايتهما ، لا يحفلون بأمونة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل انسان .

## ٣

# خديجة

لم تنزل من السماء ، كما تنزل الملائكة ، رحمة وروحاً على الارض . ولم تخرج من النهر كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن في الزمان القديم من الجداول والانهار ؛ ومن العيون والينابيع . ولم يحملها الينا السحاب ، ولا ارسلها الينا نجم من النجوم . وانما نشأت في القرية ، وفي اسرة بائسة شقية من اسرها كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن والوفهن في المدن والقرى دائما . ولكنها امتازت من اترابها . بوجه كأن الشمس القت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد ، ولم يكن احد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقي . فقد كان وجه أبيها جهما غليظاً قد احتفرت فيه الاخاديد احتفاراً ، وفعل به البؤس والشقاء وسخف العيش الافاعيل . وكان وجه امها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة . وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التي تدفع البائسين من العمل إلى ما لا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون — كان هذا كله قد غشي وجهي هذين الابوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة والغباء .

ولم تكن تمتاز باشراق الوجه ونقائه فحسب ، وانما كان اشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد اسبغت

على جسمها كله، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع في تمهل وتأنق وأناة، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأني بعمله فيخرج تمثاله آية في الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعا.

وكان صوتها، إذا تكلمت، رخصاً عذباً صافيا ممتلئا، لا تكاد الاذن تسمعه حتى يحضر في النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر في ظلمة الليل كأنه السهم، واشراق الشمس على الارض حتى تملأها جمالاً ونوراً.

كان صوتها يحضر في النفس هذا الوقت القصير الذي يكون بين انطلاق الفجر واشراق الشمس، والذي يترقرق فيه نسيم رقيق عليل، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة، ملؤها الحياة والنشاط، قد أرسلتها السماء إلى الارض، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك: تتغنى الطير وتحف الاوراق، وتهف الغصون، ويهمس الضوء الفاتر إلى الارض ان أفيقي وتأهبي، فقد اوشك موكب الشمس ان يلم.

كان صوتها يحضر في النفس هذا كله إذا تكلمت، ولم تكن تتكلم إلا قليلا، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافي يلائم وجهها المشرق النقي، وخلقها الرائع السوي؛ فكان شخصها اشبه شيء بآية من آيات الموسيقى التي لا تلذ السمع وحده، وانما تلذ كل ما في الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير. وكان الناس يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل: من اين جاء هذان الابوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح، بهذه الآية التي استأثرت بأرقى الحسن وانقاه؟ وكان فقيه القرية إذا الح الناس في التساؤل امامه، تلا عليهم هذه الآية من القرآن، منكراً عليهم تساؤلهم والحاحهم فيه: «تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من

تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون ان يهب الله الجمال للقبح وهو يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ! انكم لا تنكرون ان ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا ان ينهزم ضوء النهار امام ظلمة الليل فلم تنكرون ان يهب الله خديجة هذه لامها محبوبة ولابيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امراة نصفاً ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هـذا الذي يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً واسعاً ، لا تحسن ان تصنع غيره من خبز القمح . فكنت تراها في آخر الليل ملمة بهذه الدار او تلك ، تهيء العجين . وكنت تراها في اول النهار جالسة امام الفرن . تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها في سرعة مدهشة على الشكل الذي ينبغي ان يسوى عليه ، ثم تقذفها الى النار قذفاً خفيفاً رفيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذي يجعلها سائغة في الأفواه والحلوق والبطون . وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار ان ينتصف عائدة الى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت اجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها الى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، ويقنعون بهذا الخبز في كثير من الايام ، وقد يضيفون اليه هذا الادام او ذاك ، ان ساق الله الى شعبان رزقاً ، او تفضلت بعض الاسر الموسرة على هذه الاسرة المعسرة بشيء من طعام . فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، او الخبز مع شيء مما تنبت الارض وتصل اليه الايدي القصار من البصل والفجل ، وهذه الاعشاب التي لا يتحرج البائسون من ان يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقتراً عليه في الرزق ، قد ورث عن ابيه مهنة لا

تغني من جوع ، كان بناء متواضعاً لا يقيم الدور التي تتخـــذ من الحجر والآجر واللبن، وانما يقيم البيوت والحجرات التي تتخذ من الطين الغليظ: تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط بـه بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة او غير متلائمة يضاف بعضها الى بعض لتمتد في الفضاء وترتفع في الجو ، وتـدور او تستطيل حول رقعة ضيقة من الارض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة او اقل من القامة ، مد عليها شيء من سعف النخل فاستقام منها بيت او حجرة يأوي اليها البائسون من اهل القرى ، فتقيهم ايسر ما ينبغي ان يتقوا من عاديات الطبيعة .

واهل القرى لا يبنون هذه البيوت في كل يوم ولا في كل اسبوع ، وانما يبنونها حـين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف ان يتخذوا البيوت والحجرات ، او ان يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة او تلك ، او فوق هذا البيت او ذاك .

فكان يعمل اليوم او اليومين او الايام القليلة ، ليظل بعـــد ذلك متعطلا اياماً او اسابيع . وكان يوسع على اهله بهذه القروش التي يغلها عليه عمله من حين الى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات ان طالت يده الى قليل من الطيبات . فلم يكن بد من ان يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا انفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على اهلهم بفضل ما يساق اليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً ،تعمل في دار من دور اليسار ،تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط في خدمة اهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم الى بيت ابويها فتنفق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شيء من حزن كان يستقر في قلبها ويتغلغل في ضميرها ، ولا يبين عنـــه

لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الاشكال . كانت تفكر من غير شك في بؤس أبويها واخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة بلفظ او لحظ او حركة ، انما كانت تخفي حزنها كما يخفي البخيل كنزه ، وربما نمت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت الممتلىء العذب فتترك في نفوس السامعين أثراً غريباً . وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مراً سريعاً لايتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلاً عن أن يسألوا عنها. كانت حياتها في تلك الدار بهجة متصلة ورضا مقيما ، تقطعها بين حين وحين وفي لحظات قصار جداً هذه النميمة التي تهم أن تنبىء بالحزن ، ولكنها تذوب قبل ان تنبىء بما همت أن تنبه اليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، وتحسن اليهم كلما اتيح لها الاحسان . وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين او الغليظ العنيف ، تأجرها على ذلك ، لابالقروش التي تضعها في يدها ولكن بالثوب تهديه اليها من ثيابها هي الخليعة ، او من ثياب ابنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيها ، وبالطرف تطرفها بها في أيام الأعياد وفي أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء . ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وانما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالاسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلا .

وفي ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكي ، وصوت عصاً تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ؛ فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا

يروعها إلا محبوبة قد القت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذباً عنيفاً ، ويدها الاخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التي تتخذ لادارة الخبز في النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الاليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر اليها وتسأل عنها الفتاة ، في حين تمعن يدها في جذب الشعر ، وتمعن الاخرى في رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا ارى ! وماذا اسمع ! ثم اسرعت الى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، والى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين امها . ولكن محبوبة امعنت في بكاء متصل فيه شهيق وزفير . ثم لم تلبث ان اخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التي تأخذ امثالها من النساء حين يمعنّ في الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار الى ان تنضحها بشيء من ماء لترددها الى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة الى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها لهغزاراً : سمعت منها انها وجدت في زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك في ان ابنتها تخون سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع . لم يبق اذن الا ان تسرق ، فتخون من يحسنون اليها والى اهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شيء من نعمة ورضا ! لم يبق اذن الا ان تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء الى شقاء . من اجل هذه السرقة التي استكشفتها فتر عليهم في الرزق ، فردت هي عن بعض الدور التي كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هـذا

الشقاء ، فقد عرفناه الآن . ان لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع .

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها: على رسلك أيتها المرأة ! فان ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، وانما كلفتها أن تحملها اليكم أمس مع الليل ، وفيهما شيء من طعام ، كدأبي معها دائما . وما أرى إلا انها قد نسيتها حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فانها لم تحمل الينا أمس طعاماً كما انها لم تحمل الينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحيي ان ترفض ما تكلفها سيدتها ان تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحيي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الاطباق تخففت مما فيها تهديه إلى الفقراء ان وجدت في طريقها الفقراء، وتلقيه إلى الكلاب ان لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلابا ، ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها ، إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت اليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولا تذكرهما إلا حين رأت امها مقبلة تحملها وتسألها في غلظة عنهما اين كانا ومن اين سرقتهما . ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جوابا . وانما تجذب شعرها باحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الاخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما امعنت الفتاة في النحيب امعنت امها في الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار ان خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها

صديقا . وقصت على زوجها القصة آخر النهار، فرق للفتاة واهلها، واوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم . »

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من امور الناس ولا فيما يقص عليهم من احاديث الجدات . وفتيان القريـــة يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذي يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب. وفتيان القرية يسرون في انفسهم حبـــاً لخديجة واعجابا بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم اطراء لخديجة وثناء عليها . والأماني تلعب بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل. ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من اسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن الاعدام، لها ارض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود اليها مع المساء ، وتغل على الاسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوي موفور الصحة ، عظيم النشاط جميل المنظر، منطلق اللسان ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه في ضروب من العبث وفنون من الحديث .

واسرة خديجة تسمع اول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد انكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذي يحيي النفوس، والخوف الذي يميت القلوب . وما يمنع هذه الاسرة البائسة ان تجد في هذه الخطبة روحاً

من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها ان ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من اصهارها إلى اسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح في صدقه وحبه . واسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئا آخر ، فهي صادقة ملحة في صدقها ، تبتغي الوسائل إلى اقناع البؤس بأن يصير إلى النعيم .

وقـــد استقامت الامور بين الاسرتين ، ولكنها لم تستقم في نفس خديجة ؛ فهي تمتنع على هذا الزواج وتلح في الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التي تحياها خادما على تلك الحياة التي تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة اهلها . وهي تمتنع وتمتنع وتلح في الامتناع حتى تثير الريبة في نفس ابويها ؛ فما ينبغي ان تصر على هذا الاباء الا ان تكون قد قصرت في ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضي بسرها هـذا البشع الى سيده خديجة في صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع . ولكن سيدة خديجة تردهـــا الى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حينا ، وتخاشنها حينا آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاسا . وقد احتفلت اسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفـاف ايضا ، وهيئت الفتاة لهـذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وابت سيدة خديجة الا ان يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفي ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها امام بيتها الحقير تريد ان تبكي فلا تجد الدموع ، وتريد ان تتكلم فلا تجد الالفاظ ، وانما يتردد في حلقها صوت خفي منكر ، ان دل على شيء فإنما يدل على خوفها

وهلعها مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهي كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين الى حين اضطرابا عنيفا ، وتجري في اطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة اخرى ، ويتردد في حلقها هـذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقا ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزاً عنيفاً وتزجرها زجراً مخيفا ، وتقول لها في صوت يسمعه الناس : أفيقي ! ثوبي إلى نفسك ! ماذا تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن اليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملا وقوتها موفورة .

وتنقضي الليلة كما تنقضي ليالي الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراها . تسمع منهن كل شيء ولا تقول لهن شيئا ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا .

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التي تغمر نفسها ، وهذه الدموع التي تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن في مثل هذا اليوم الذي تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جوابا ، لأنها لا تجد عند نفسها جوابا ، أو قل ان الجواب مستقر في نفسها ، ولكنها لاتستطيع ان تبديه لأنها لاتستطيع

أن تصل اليه ولا ان تظهر عليه . وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جوابا لما يدور على السنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتها لاخترعن الجواب على تساؤلهن اختراعا . وأي شيء أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأينا الفتاة أمس تزف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون زائغة البصر لا تمسك نفسها إلا في جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهي تنظر اليه . ولقد كانت امها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان . اليس في كل هذا وفي بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترتفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل اليها التحية وتحمل اليها الهدية أيضا ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو الى الفتاة خلوة تطول شيئا ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الايام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الاشياء .

ولكن الأيام تمضي ولا تذهب بشيء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الايام تمضي كما تعودت أن تمضي في أعقاب الاعراس . فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حباً ويزيد موقعها في القلوب حسنا ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافي الممتلىء ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألذ موقعاً في السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الازواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل، وتغمر الارض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر واشراق الشمس ، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ،وحفيف الاوراق وهفيف الغصون ، وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة . وفي هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل ، واول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئاً فشيئا ، وأخذ الهم يستيقظ في قلوبهن فنوناً وألوانا ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وانما وجدت على شاطىء النهر وفي مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة وإلى جانبها بعض الحلى . والتمست خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون .

قالت سيدتها وهي تكفكف دموعها تريد ان تنسجم ، وتثبت صوتا يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة اكراهاً على الزواج ، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت.

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ! فقد كتب على محبوبة ان تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان الا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

## ٤

# المعتزلة

لا اريد تلك الفرقة الاسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما اريد اسرة مصريه بائسة كنت انسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذي ألم بمصر فذكرتها ذكراً متصلا ملحا ، وحاولت أن اخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث ان يخرجها من ضميري الخاص إلى الضمير العام ، فيكون في ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما في النفس . والهموم الثقال تخف إذا شاركت في حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن ايداً قويا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن اهدي حديث هذه الاسرة البائسة إلى المترفين المنعمين في الأرض ؛ لا لأبغض اليهم الترف بل لازينه في قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم اليه دفعا . فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق الا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر الى من دونه من الناس فيعرف ما اتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له ، واسباغ نعمته عليه ؛ ويستمسك من اجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من اجل ذلك بما قدر له من النعيم . وانا

ابعد الناس عن التفكير في ان ازهد المترفين في ترفهم وارغب المنعمين عن نعيمهم؛ لأني اعلم من جهة اني لن ابلغ من ذلك شيئا ان اردته مهما انفق من الجهد ، ومهما ابرع في تدبيج القول وتنميق الحديث. ولأني اعلم من جهة اخرى ان ترف المترفين انما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم. وليس من سبيل الى تغيير القضاء، او تبديل القدر، او الغاء سنة الله في الناس. فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ،يترف بعضهم حتى يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم . ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان، ويشقى حتى يمجه الشقاء. ولأني اكره بعد هذا وذاك ان اكون كالثعلب الذي حاول ان يصيب العنب، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم انه فج بغيض.

وقد خطر لي ان اتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر، هو ام تمام. لا اريد به زوج شاعرنا العظيم، وانما اريد به زعيمة هذه الاسرة المصرية البائسة؛ فقد كانت تكنى باكبر ابنائها. وخطر لي ان اهدي حديث هذه الام وبنيها الثلاثة الى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء، والح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت ابناءهم وآباءهم واخوانهم وعائليهم وتركهم نهباً للشقاء لا يدرون كيف يتقونه، ولا كيف يحتملونه، ولا كيف يخلصون منه. لا لأبغض اليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد، فما ينبغي ان تبغض الى البائس بؤسه ولا ان تكره اليه شقاءه، وانما ينبغي ان تحبب اليه البؤس، ليحتمله وليتزيد منه ان استطاع ، وان تزين في قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه ان وجد الى الامعان فيه سبيلا . فالبؤس قضاء محتوم على البائسين، كما ان النعيم قضاء محتوم على المنعمين. والشقاء قدر مقدور على الاشقياء، كما ان السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل

الحازم العازم الحكيم خليق ان يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر غير ساخط عليه . ولأمر ما وصف الشرقيون بأنهم اصحاب اذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه. فلنصدق على اقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر اصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، واصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهي أولئك وهؤلاء الى الموطن الذي لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذي لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذي لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذي تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون الى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شيء فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة وام تمام ، كما ترددت في إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن اخير القارىء بين العنوانين ، وان اهدي الحديث الى الفريقين ؛ ففي حديث هذه الاسرة ما يرضي المنعمين والمعذبين جميعا . وأي مطمع للكاتب أجل شأناً وأعظم خطراً من أن يرضي قراءه على مايكون بينهم من اختلاف ! وفي حديث هذه الاسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعا . وما قيمة الكاتب اذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا اريد دائماً أن اكون كاتباً ذا خطر ، فارضي قرائي واسخطهم ، واسر قرائي واسوءهم ، واعجب قرائي حتى يكلفوا بي أشد الكلف ، واغيظهم حتى يمقتوني اعظم المقت وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا في حديث هذه الاسرة ما يحبب اليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ، ويرضون عني كل الرضا ، وبأن اصور لهم هذا الترف منكراً بشعا ، ومذماً بغيضا ،

فيسخطون علي أشد السخط . وانا زعيم للمعذبين بأن يجدوا في حديث هذه الاسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عني ، ومايلقى في قلوبهم ان حياتهم لانطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها الى حياة ألين جانباً وأرق ملمسا ، وان ليس لهم سبيل الى هذا الخروج ، فيضيقون بي أشد الضيق . وابلغ بذلك كل ما اريد ، وهو أن ارضي القراء واغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف . فأنا لا اريد الا هذا ، ولا افكر الا فيه . وما الذي يعنيني من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الاشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعنيني من ذلك شيء ؛ لأني رجل من أهل العصر الذي أعيش فيه . واخص ما يمتاز به هذا العصر الذي أعيش فيه الاثرة وحب النفس . فأنا رجل أثر لا احب الا نفسي ، ولا افكر الا فيها ، ولا اعنى الا بها . وأنا رجل كاتب لا يعنيني إلا ان املك على القراء امرهم بما اثير في قلوبهم من رضا وسخط ، وبما اشيع في ضمائرهم من حب وبغض ، ولست ازدري شيئاً كما ازدري القاء الدروس في الأخلاق ، ولست انفر من شيء كما انفر من ترغيب الأغنياء في العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الاشقاء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ! إن الناس من حولي لا يذوقون للتضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم في بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فمالي احمل نفسي من الاعباء ما لا يريد الناس من حولي ان يحتملوا ؟ ومالي ادفع نفسي الى هذا الشذوذ الذي لا خير لي فيه ولا خير لأحد فيه ؟ ومالي لا اسير سيرة الجيل ولا اعيش عيشة المعاصرين ، ولا انتفع بقول أبي العلاء :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل أني جاهل

الاثرة ، يا سيدي ، هي الأساس المتين الذي يقوم عليه نظامنا الاجتماعي البديع ، الذي نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد . فمن اراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من ان يعبث به العابثون او ان تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا نحب ، فليكن اثراً الى ابعد غايات الاثرة ، محباً لنفسه الى اقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس الا بمقدار مايهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلغونه من الآراب فإذا بعد الامد بينه وبينهم ، او خفيت عليه اسرار الصلات التي تجعله محتاجاً اليهم وتجعلهم محتاجين اليه ، فلا عليه من ان ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراء ، ويمضي في طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالا الى ما يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش وكذلك يجب ان نعيش . وايسر انحراف عن هذا اللون من الوان العيش ، وعن هذا النظام من نظم الحياة ، خليق ان يجشمنا اهوالا ، ويحملنا هموماً ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا إذا عني اصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة ، التي تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن ان يجتمعوا الى سخف الحديث حين يرتفع الضحى ، والى سخف المتاع حين يقبل المساء ، والى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، والى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالاشراق ؟ إذن تفقد الحياة بهجتها . وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصري كله نكداً

كدراً منغصا ، لا صفو فيه ولاعفو ولاجمال . حسب الاشقياء ان تعطف عليهم السنتنا وتنأى عنهم قلوبنا . وان نرثي لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ونخلي بينهم وبين احداث الزمان ونوائب الايام ، تجرعهم الآلام غصصا ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساغة الشر الذي لا يساغ . واقول هذا كله جاداً لا عابثا . فالله قادر على ان يمس الارض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً مايتمنون من الترف والثراء والنعيم . والله قادرعلى ان يمس الارض بجناح من نقمته فيفرض على اهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب . وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً اشقياء ، وانما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذي نراه ، فليس لنا وليس علينا الا ان نريح انفسنا ، وان يريح بعضنا بعضاً من اللوم والنكير والتثريب ، وان يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وان يحقق السعيد ارادة الله في الارض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وان يحقق الشقي ارادة الله فيغرق في الشقاء الى كتفيه او الى اذنيه ، او الى شعر رأسه ان شاء .

وقد يظن القارىء اني قد اسرفت في البعد به عن هذه الاسرة المعتزلة ، وعن حديث ام تمام . ولكنه يخطىء اشد الخطأ ان ظن بي هذا الاسراف ، وهيهات يصيب كل الصواب حين يظن بي هذا الاسراف فليس يعنيني من خطئه او صوابه شيء . وانما الذي يعنيني هو اني انا لا اعتقد اني اطلت المقدمات او انحرفت عن موضوع الحديث . فقد قلت ان هذا الوباء الذي الم بمصر اذكرني من امر هذه الاسرة المعتزلة ما كنت ناسيا ، ثم الح على ذكرها الحاحاً شديداً . واكبر الظن اني لم اذكر هذه الاسرة البائسة ذكراً متصلا ملحا ، ليقف منها عقلي وقلبي موقف الناظر لها المحدق

فيها ، دون ان يثير ذلك في العقل بعض الخواطر ، ودون ان يثير ذلك في القلب بعض العواطف، ودون ان يشيع ذلك في الضمير بعض الحزن. والكتاب البارعون في الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم واحزان ضمائرهم الى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد ان يعتبر ،وموعظة لمن يريد ان يتعظ . فيجعلون من انفسهم اساتذة في الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن انفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون ان القارىء اشد منهم مكراً وابلغ منهم دهاء ، وانه يقرأ اول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، او لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والارشاد والاصلاح اشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم واحزان ضمائرهم في حديثهم كله منذ يبدءونه الى حيث يفرغون منه . يتخذون من قصصهم اغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن انفسهم ، ولكنهم لا يخدعون القراء جميعا . فلا يكاد الاذكياء منهم يقرءون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرءون على كره او يزورون عن القراءة ازوراراً . فأما انا فقد قلت وما زلت اقول : اني لا اريد ان اعلم جاهلا ، ولا اريد ان اعظ غافلا ولا ان انبه ذاهلا . فلست من هذا كله في شيء ؛ لأني واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن ان يرقى اليهم الجهل ،اذكياء لا يمكن ان تسعى اليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن ان يعرض لهم الذهول . وقلت ومازلت اقول: اني لا اريد ان اخدع احداً عن نفسه ؛ لأني لا اسيء الظن بالقراء ، ولا انظر اليهم على انهم اطفال يجب ان يلهوا عن الدواء بهذه الاغشية التي تجنبهم مرارته وكراهته.

فكيف وانا لا اقدم اليهم دواء ؛ لاني لست طبيبا ، ولانهم ليسوا مرضى ، ولاني راض عن حياتنا التي نحياها كل الرضا ، مطمئن اليها كل الاطمئنان ، معجب بها اعظم الاعجاب ، لا اريـــد ان اغير منها قليلا ولا كثيراً ، ولا احب ان يتغير منها قليل او كثير . واول هـذا الحديث يدل فيما اظن دلالة واضحة عـلى أني من المحافظين المتشددين في المحافظة ، ومن اصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحدكما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن اجل هذا كله اخترت ان اتحدث الى القراء في هذا المقال عن أم تمام واسرتها المعتزلة ؛ لأن أم تمـــام كانت تصور المحافظة الميامنة أبرع تصوير وأصدقه واقواه . فهي كانت من اهـل الصعيد الاعلى . وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن في الارض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن في السماء عدلا يجب ان يهبط الى الارض ليملأها امناً ودعة ورضا . وانما هم قوم يعيشون عـلى فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الارض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألفوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من اولئك ولا هؤلاء الا ان يمضوا فـيما استأنفوا من لعب ، فان منهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وان منهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديـلا . ويقال ان الكاتب يختار اشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعا . ولولا ان ام تمام كانت غارقة في البؤس والشقاء ؟ ومسرفة في الدمامة والقبح ، لقلت اني اقتطعتها من نفسي اقتطاعا . ولكني لست غارقـا في البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال . وسيرى القارىء أن صورة أم تمام

ليست مني في شيء ، فيدله ذلك من غـــير شك على اني لم اخترعها ولم ابتدعها ، وعلى أن خيالي الضعيف الكليل ليس له في حياتها ولا في حياة اسرتها أثر ما ، وانما هي حقيقة واقعة خلقها الله الذي يخلق الحقائق كلها ، والذي يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت ام تمام هذه غريبة الاطوار من كل جوانبها ، حتى اني لا استطيع ان اختار الطور الذي ابدأ به من أطوارها . وربما كان الخير ان اعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت الضئيل الحقير الذي كانت تعيش مع ابنائها فيه .

فقد كان هذا البيت اشبه شيء بالبقعة القذرة التي تفسد جمال الثوب الجميل النقي . كان ضيقا في الفضاء اشد الضيق ، منخفضاً الى الارض اشد الانخفاض ، قد اقيم من هذا الطين الساذج الذي يخلطه الفلاحون بشيء من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه في مصر الوسطى « بالطوف » ثم يجمعون بعض هذه الاطواف الى بعض حول قطعة من الارض ، يرفعونها في الجو شيئا ويمدونها في الفضاء شيئا ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخل او من قصب الذرة ، ويتخذون لها بابا من خشب رقيق ، فتصبح بيتا يأوون اليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء ان كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل ان يقي الذين يأوون اليه برداً او حراً او مطراً . وكان بيت ام تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، او قل بين فنائين واسعين لهاتين الدارين . وفي كل فناء من هذين الفنائين قامت اشجار وشجيرات ، بحيث هم كل فناء منهما ان يكون حديقة تقوم امام الدار ، ولكنه لم يبلغ ان يكون

حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التي يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم ادر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين . وقد سألت الناس من حولي عن هذا ، كما سألتهم عن مقدم ام تمام وبنيها الى القرية واقامتها في هذا البيت ، فلم اجد عند احد منهم جوابا ؛ لأنهم كانوا جميعا طارئين على القرية دعتهم اليها الدائرة السنية ، ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان انشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من امر جيرانهم ولا من امر قريتهم الا قليلاً او اقل من القليل . وكانت سيرة ام تمام وبنها تمنع جيرانها من ان يعرفوا شيئاً من امرها ؛ فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد . فقد ينبغي أن تعرف قبل ذلك ام تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ، فصورتها خليقة أن ترسم : كانت أم تمام قصيرة مسرفة في القصر ، منحنية مسرفة في الانحناء . همت قامتها ان ترتفع في الجو فلم تستطع أن تستقيم ، وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالارض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الاربع منها بالانسان ذي القامة المعتدلة والقد المستقيم ، وكانت من اجل هذا اذا مشت خيلت اليك انها تتدحرج كما تتدحرج الكرة . وكان مشيها بطيئا رفيقا ، فكان يشبه حركة الكرة عندما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى الى السكون . وكان صوت أم تمام نحيلاً ضئيلاً ، وكانت قد فقدت بعض اسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا في مشقة وجهد . وكان يعيش معها في بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد احدهما

أن يبلغ العشرين وهو تمام ، وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلاً وهو أبو العلاء . وكان تمام وأخوه يعملان في البناء . يحاول تمام أن يكون بناء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التي تتصل بعمل البنائين . ويصيب الغلامين من هذا العمل الذي يتصل أحياناً وينقطع أحياناً اخرى ما يتيح لأسرتهما قوتاً يقيم الأود ولا يكاد

وكانت لأم تمام بنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهي سعدى التي كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها وجسمها كله اختصاماً شديداً . يريد الجمال ان يستخلصها لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح ان يؤثر بها نفسه مستعينا بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان . وكانت الصبية بين هذين الخصمين اشبه شيء بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف احد لهذه الاسرة زعيما ، بل لم يعرف احد كيف هبطت الاسرة من اعلى الصعيد الى هذه القرية من قرى مصر الوسطى . وانما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيده تنشىء بنيها الثلاثة وقد لقيت في ذلك جهداً جهيداً وعنـــاء شديداً . لم تهبط بهم من صعيدها الاعلى الى قريتنا تلك الا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم في هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم في هذه القرية أشهراً ، وفي هذه القرية أسابيع ، وفي هذه القرية أياماً قليلة او كثيرة ، حتى انتهت الى قريتنا تلك ، فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم ام تمام أقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن اقل من جسمها . فانت ان اردت ان تنطق به كما كان الناس ينطقون به في القرية قلت ست ابوها ، وان اردت ان تنطق به على اصول اللغة الفصحى قلت سيدة ابيها ، أو ست ابيها كما كان الناس ينطقون في بعض عصورنا القديمة .

وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ؛ وكنا ننطق به على انه كلمة واحدة لا كلمتان ؛ وكنا نسأل انفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب

ولم تحاول ام تمام قط ولم يحاول احد من بنيها قط الاتصال بالناس الا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم الى ذلك اضطراراً . فقد كانوا يحتاجون الى ان يشتروا الطعام ليقيموا أودهم: وكانت ام تمام تحتاج أحيانا الى ان تبيع ؛ فقد كان يعرض لها في بعض الوقت ان تخرج الى الطريق الزراعية العامة ، وان تتلقط من هذا الطريق روث البقر والجاموس تقطعه قطعاً متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ ان اتيح لها ان تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقروش او بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها. ولم يخطر فيما اعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين اللتين كانتا تكتنفان بيتها ان يبروا هذه الاسرة بقليل او كثير من الخير ؛ لا لأن الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون الى المعونة ، بل لأنهم في اكبر الظن قد هموا ان يبروا هؤلاء الناس فردوا برهم عليهم في شيء من التعفف الذي لا يحب من الفقراء ؛ فكف الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم في الرزق . وامثال ام تمام في القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل في دور الموسرين والاغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت انفسهن وفضلا من خير يحملنه الى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسي العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة .

ولكن ام تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد حرجت على ابنيها ان يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الاغنياء واصحاب السعة . فلم يكن الغلامان يشاركان في لعب

ولا في جد . وربما راهما الراءون وقد جلس كل منهما الى اخيه يخططان في الارض أو يلعبان لعبة « الطاب ». وكذلك نظر اهل القرية الى هذه الاسرة على انها اسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها في كل شيء. وكان اهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس في اشفاق كثير لا يخلو من سخرية، وربما يقسو — ان امكن ان يكون الاشفاق قاسيا — فيشتمل على شيء من شماتة. كانوا يرون هذين الغلامين يحتملان اشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة في بعض الايام، ويتساءلون كيف تعيش هذه الاسرة من هذا الكسب القليل . وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها ان تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع . وكانوا يرون الصبية سعدى في اسمالها البالية ، فيرحمون هـــذا الصبا النضر في هذا الغشاء المبتذل. ويقول بعضهم لبعض لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشا أرق رقة وألين لينا .

اما ام تمام فلم يرها احد قط الا ملتفة في شقتها السوداء تتدحرج على الارض حين تشرق الشمس ساعية الى الطريق العامة ، وتتدحرج على الارض حين يرتفع الضحى او ينتصف النهار، حاملة ما جمعت من روث. وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه، فرأوا منظراً بشعاً وشكلا مخيفا.

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين. ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى . ويفجع الناس في أنفسهم وأبنائهم وذوي قرابتهم ومحبتهم ، وتكون ام تمام في طليعة الذين يفجعهم الوباء ؛ فهو يختطف ابنيها جميعا في اقل من خمسة ايام . وهي مع ذلك هادئة ساكنة

مطرقة بجسمها كله الى الارض ، لا يرتفع لهـا صوت بالاعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وانما هي مقيمة في بيتها ، وقد آوت اليها ابنتها كأنما تنتظران أن يلم الوباء بها ويختطفها كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود اليه . فاذا طال انتظار أم تمام له في غير طائل ، نظر الناس فاذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، واذا حياتها قـد بدلت تبديلا ، فهي لا تألف بيتهـا ولا تحب الاستقرار فيه ، وانما تمسك فيه الصبية وتخرج عليها ان تخرج منه ، وتنطلق هي مع الشمس المشرقة لتعود الى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الارض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين الى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملفعة في شقتهـا السوداء مطرقة بجسمها كله الى الارض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها في تكلف شديد الى السماء ، وتمد بصرها أمامها ثم تلتفت الى يمين والى شمال ، تجذب الهواء بأنفها جـذباً ، كأنما تحاول ان تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحـة الموت ، ثم تندفع الى يمين أو الى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله الا في دار من هذه الدور التي ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين . وكانت أم تمام تصل الى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ، ولا تلقى الى احـد سمعاً ، وانما تقصد قصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهي بها المجلس ، لا ترفـع صوتاً باعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرهـا ، ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وانما تجلس ساكتة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت في غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير

غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التى يتفجر عنها الصخر في الجبال . حتى اذا بلغت حاجتها من البكاء في هذه الدار تركتها الى دار أخرى ثم الى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضي النهار لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكي ابنيها ؟ أكانت تبكي أبناء تلك الأسرة التي كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكي صرعى الوباء جميعاً ؟ أم كانت تبكي نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ، وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط ان يعرف من ذلك قليلاً ولا كثيراً . لم يحاول أحد أن يعينها ، ولم تحاول هي أن تستعين بأحد ، وانما انفقت أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها في منازل الموت اثناء النهار ، وتعود الى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلي غمرة الوباء ، وتخرج ام تمام من بيتها مع الصبح اياماً واياما ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم ريح الموت فلا يحملها اليها النسيم ، فترجع ادراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت . ويراها بعض اهل القرية ذات يوم وقد خرجت قبل ان يرتفع الضحى ، واخذت بيد ابنتها وجعلتا تسعيان في بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه ام تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتي نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة اخرى تمتنع على الموت امتناعاً ، قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها في القناة الابراهيمية ، فأسرعوا الى استنقاذهما ، ولكن

الموت سبقهم الى الشيخة وسبقوه هم الى الصبية . وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، في هذه الدار أياما وفي تلك الدار أياماً . ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ؛ فهي ثقيلة على الذين يؤونها ، بغيضة الى الذين يضيفونها . وما هي الا اسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، واذا هي مشردة تسعى ما استطاعت السعي ، وتسكن حين تضطر الى السكون ، تراها في هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة وفي هذا الزقاق من ازقتها ممسية ، وتراها بين ذلك في الطريق العامة تسعى سعياً رفيقاً كأنها السلحفاة ، او تعدو عدواً سريعاً كأنها الارنب . وقد تراها احيانا جالسة على شاطيء القناة تنظر الى الماء كأنها تريد ان تغوص فيه ، او تنظر الى السماء كأنها تريد ان ترقى اليها . وعرف الناس سعدى البلهاء ، ونسي الناس ام تمام ، وجعل الناس ينظرون الى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف الى أمثالها يعطفون عليها حينا ويضحكون منها أحيانا ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات :

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقي على وجهها مسحة من جمال ، وهي على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن ان تعمل ولا تحسن ان تقول ، ولا تستقر في مكان ، وانما هي متنقلة بين القرى . ترى في هذه القرية يوماً وفي تلك القرية يوما آخر ، وقد ترى في هذه القرية مصبحة وفي القرية المجاورة من قرب او من بعد ممسية . ولكن اهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظراً عجبا من شأنه ان يمزق القلوب حزنا ويفرق النفوس حسرة وأذى . يرون هذا المنظر المؤذي البشع البغيض ، فلا يثير في نفوسهم رحمة ولا يجري السنتهم

بكلمة رثاء ، وانمـــا ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الالفاظ الغليظة التي تصور سخرية أهل الريف ؛ لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع في احشائها جنيناً . . هي بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد ان كان لمثلهـــا ان تريد .

اين مضت سعدى بهذا الجنين الذي كانت تحمله في احشائها ؟ أأتيح لهذا الجنين ان يرى النور ام لم يتح له ان يراه ؟ما خطبه وما خطب أمه؟ لن احدثك من امرهما بشيء لأني لم اعرف من امرهما شيئاً . وانما حدثتك بما وقف عنده علمي ، فقد ارتحلت عن القرية قبل ان تبلغني انباء الجنين وامه البلهاء، ثم شغلت عن الجنين وعن امه البلهاء وانسيت ام تمام وابنيها . وتقلبت فيما شاء الله ان انقلب فيه من شؤون الحياة خمسة واربعين عاماً . ثم اعود الى مصر بعد غيبة عنها قصيرة او طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هي الا ان اذكر ام تمام وابنتها سعدى البلهاء ، وما هي الا ان اسأل نفسي ايمكن ان يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال ام تمام واشباه ام تمام ؟

يقال ان شؤون مصر قد تغيرت ، وان حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن ولكن شؤون مصر التي تغيرت ، وحياة مصر التي صلحت لم تمنع الوباء من ان يجدد عهده بزيارة مصر . فمن يدري! لعل تغير الشؤون وصلاح الاحوال ورقي النظام الاجتماعي والسياسي، لا يمنع من ان توجد في قرية من قرى مصر العليا او من قرى مصر السفلى، او قريباً جداً من القاهرة، أسرة معتزلة كأسرة أم تمام .

## ٥

# رفيق

كان ذلك في ساعة من ساعات الضحى، حين كان النهار يجب أن يبطىء في سعيه، ليحبس الصبية والشباب من اهل الكتاب، ويمسكهم في حياتهم تلك التي كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التي يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم، والتي كانوا ينتظرونها متشوقين اليها، لا ليرضوا حاجتهم إلى الطعام، بل ليرضوا حاجتهم إلى الحرية واللعب. وكان الصبية والشباب من اهل الكتاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس، ويخدعون انفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض، بنشاط غريب مفاجىء، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الايدي التي تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء. وكان الكتاب في ذلك الوقت أشبه شيء بخلية النحل، كله حركة، وكله نشاط، وكله دوي يرتفع حتى يسمع من بعيد جداً، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها، بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التي لم تثبت بعد، وأصوات الصبية التي أخذت تمتلىء لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئاً، واصوات الشباب التي كادت تشبه اصوات الرجال وكادت تستوفي حظها من الامتلاء. وكانت هذه الاصوات المختلفة المنطلقة في وقت واحد، تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً، فيه كثير من الملاءمة والانسجام، يشبه ما تحمله إلى

الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها في طبيعة الجرس، وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملأ النفس روعة وطرباً.

في هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفي ساعة اخرى من ساعات النهار ، حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها . ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت ، دون أن يصفق تصفيقاً قوياً ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس ، فيعقد الألسنة عن النطق ، ويكف الايدي عن الحركة ، ويعلق التلاميذ في صمت أبله ، وسكون احمق ، ووجوم غريب .

في ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقي الباب رجل قد تجاوز الشباب ، ولكنه لم يمعن في الشيخوخـــة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذي تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر في الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ولا يشك في شيء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وأكبر الظن انه كان ضابطا من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية الى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظا بعاداته وتقاليده العسكرية كلها او اكثرها . وأكبر الظن انه لم يكن مصري الأصل ؛ وإنما كان تركيا تمصر هو أو تمصرت اسرته ؛ فقد كان يحمل في وجهه وفي شكله كله شيئا لا أدري ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير في نفوس المصريـــين إذا رأوه من قريب شيئا غريبا

فيه إكبار له، وفيه استخفاف به.

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتاب، قد اعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعيا رفيقا: فأما أحدهما عن يمينه، فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن. وأما ثانيهما عن شماله فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطا. فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته، فسمع أهل الكتاب صوتا لم يسمعوا مثله قط في قريتهم، صوتاً ضخما عريضاً ممتلئاً، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير؛ فقد قرع آذان التلاميذ، وفجأ نفوسهم، وعقلهم في هذا السكوت الأبله، وفي هذا السكون الغريب، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع، فاذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى أن يقوم كما تعود أن يفعل في مهل وأناة، وقد رد التحية على صاحبها في شيء من وجل، ثم دعاه إلى ان يتفضل بالجلوس، وتنحى له عن موضعه في صدر المكان. وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس، ولكنه أبى ان يدخل وأبى ان يجلس وقال في صوته ذاك المهيب المخيف: «إني حديث عهد بهذه المدينة، لم أصل اليها إلا منذ يومين. وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب، فأحببت ان اقود اليه ابني هذين، وان اكل اليك تعليمهما. فأما احدهما فهو هذا — وقدم الصبي الذي كان قد اعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا، فهبه كل عنايتك واحفظه القرآن، فاني قد وهبته للأزهر. واما ثانيهما فعفريت ما اراه يصلح إلا للمدرسة، فامسكه في الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم، واحفظه شيئاً من القرآن وخذه بشدة إن ابى إلا أن يكون عفريتاً في الكتاب كما هو عفريت في البيت.» ثم دفع من فمه ضحكا عريضاً، ما اظن إلا انه روع بعض

القلوب في صدور اولئك الصبية الصغار . ثم تقدم خطوة واخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهري . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف ذلك الصبي ووضعها على كتف الصبي الآخر وهو يقول متضاحكا : « وهذا هو العفريت » ثم قال لسيدنا : « فأما الأزهري فاسمه عثمان وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد ان اتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى ان اعود بهما اليوم على ان يستأنفا سعيهما إلى الكتاب اذا كان الغد ؟ وهم سيدنا ان يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله وإنما قال : سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد . ولا تطلقهما للغداء فسيحمل اليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما اذا صليت العصر حتى يأتي من يصحبهما إلى الدار ، فانهما غريبان لا يعرفان طريق المدينة بعد ، وليست الدار قريبة من الكتاب . » ثم القى تحيته بصوته ذاك المروع المخيف ، وادار ظهره منصرفا لم ينتظر ان ترد عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذي اندفع الكتاب كله فيه ، والذي لم يستطع سيدنا ولا العريف ان يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على ان يذكروا ان من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذي لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ عشرين سوطاً .

وقد رضي سيدنا ورضي معه العريف عن يومهما ، ومما ساق الله اليهما من الخير فيه ، فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ ايام ، ولم يكن شك في انه ضابط تركي قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك في حديثه ، وفي عربيته التي تبرأ من الرطانة والتكسر ، ولكنها لا تمضي مستقيمة إلى غايتها ، وانما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه ، بل

زعم العريف ان زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية الا في مشقة شاقة وجهد شديد وهي اذا اتيح لها ان تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديداً . وهي تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ، وزعم العريف ان لهذين الصبيين اختين قد بلغتا طور الشباب ، وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح الا للترك أو من يشبههم اويقاربهم من الأوربيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له . وآية ذلك انه لم يرد على العريف الا بقوله : « ما أظنه يدفع اقل من عشرين قرشا في الشهر اجراً لتعليم ابنيه . »

وكان في الكتاب صبي لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل اليهم الغداء في الكتاب وقد سمع حديث الاب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الاسرة كلها ، فوعى هذا كله في صدره وحفظه في نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد ان صليت العصر حتى اعاد إلى امه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة فقالت باسمة : « إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر ان تقع عين احداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد ، حتى كان الصبي قد تعرف الى زميليه في الكتاب عرفه اليهما سيدنا ، لأنه كان يحب ان يؤلف بين أبناء الاسر التي تستمتع بحظ من الامتياز ، ولأن هذا الصبي كان حافظاً للقرآن مجوداً له فلم يتردد سيدنا في أن يكلفه إقراء الصبي الأزهري . وقال له وقد اخذ

بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة: « لقد وكلت إليك ذقني ، فاحفظ هذا الصبي ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحني عند ابيه الموظف الجديد الكبير . وقد اني وكلت اليك عملاً كنت خليقاً أن انهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبي في نفسه شيئا من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد ان كان متعلماً ، واصبح مقرئا بعد أن كان قارئا ، ووجد في نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الاسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربي ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التي كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى اسرة تركية ولا يتحدران من هذه الاسر التي تأتلف من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبي على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن في القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة في تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التي يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع احاديث تلميذه كلفاً بها متهالكا عليها ، يكاد ينسى في سبيلها ما وكل اليه من إقراء هذا التلميذ لولا انه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة في اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى انه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً ان ينهض به هو ، أو أن يكله الى العريف ، فكان ذلك يرده الى القصد ويحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضي ساعة للقراءة وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميله متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبي قليلا وإلى بيت

الزميلين غالبا . وكان هذا البيت أنيقا مترفا في نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائما على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التي يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذي تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الاطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع في السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد في الفضاء وتكثر فيها الحجرات . وكان الذي يفجأ الصبي من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضا وإعجابا انه كان إذا عبر اليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذي ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على ارض من تراب ، وإنما يمشي على أرض قد بسط فيها البلاط . وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشا ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبي رضا وإعجابا انه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا الى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لا يسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها ، وجمعت لهما فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة اللعب ، واسندت الى جدرانها كراسي ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق فيها لم يكونا يجلسان على الارض ولا يلعبان في الفضاء المنبسط امام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه او مشاركة الواغلين من الأطفال فيه . كان لعبا مترفا في حجرة مترفة ، ليس للصبي بمثله عهد . وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون في حجرتهم تلك حتى تلم بهم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرفيق والدعابة العذبة . ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ،

فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر او يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث ، في لهجة عربية ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء . وكان حديثها ذاك الملتوي المتعثر البطيء يسحر نفس الصبي ويملأ قلبه فتوناً . فأما الآنستان فقد كانت كبراهما تفيدة رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط . وكانت أختها الصغرى إقبال جذوة من نشاط لا تنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها في فمها ، وهي على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهـــدت في لعبهم . ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه . فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبي بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر . ولكنه يرى ذات يوم في الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل اليه أن في الجو شيئاً لايلبث ان يعرف ماهو ، فقد خطبت تفيدة ، وما هي إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام في الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا ، وقد استصحبوا تفيدة ، ففقدت الدار من جمالها وبهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية في طريقها في هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبي ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه في اللعب يخوض معه في فنون الحديث ، ولكن محموداً يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل ،

ويخلو الصبي إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه . ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا الصبي ينصرف عنه قليلاً قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون اليه الواناً طريفة من الحديث ، ويقرءون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا ارب لهم في قراءتها . والصبي مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين في داره حيناً وفي دارهما حيناً آخر . ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان في شيء من الحزن وفي شيء من السخرية أيضاً بأن هذا الضابط التركي القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة ، فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلط على الضابط الشيخ عظيم ، وان تلك الدار المترفة الأنيقة التي كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقراً للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيماً تصلى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن امهم وبؤسها وبكائها المتواصل واعتكافها في حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط الشيخ وزوجه الشابة في طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والاستار المسدلة . ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد . وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذي أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا في اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفي هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفي خفوت تلك الأصوات التي كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفي سكون تلك الحركات التي كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا في هذا كله احتجاجاً على ما اتيح

لهما من سعادة وإنكاراً لما سيق اليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدي ، وأظهرا ما كانا يضمران ، واعلنا ما كانا يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة في القحة لاتتحفظ ولاتحتشم ولاترجو لشيء وقاراً. فالقبل تختلس في هذه الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هـذه الام التعسة المحزونة . ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيـذاء هذه المرأة الكئيب، فينتهزان الفرص ليظهرا لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الام البائسة عليلة لاتخرج من حجرتها ولا تترك فراشها . ثم يأتي النبأ ذات صباح بأنها قـد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت في قلب أبنائها سعيراً أي سعير . وقد استقرت هذه الام اليائسة في قبرها المتواضع من وراء النهر. وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا . وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليـالي العزاء أن تمر . أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن ، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف. ثم أقبل اليوم الثاني وأقبل معه القراء يتلون القرآن، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون في مختلف الأحاديث. وإنهم لفي ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو سافرة لم تلق على وجهها نقابا ، وقد اتخذت في احدى يديها حقيبة صغيرة . فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخـذه هو أيضاً فأثبته في مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئاً رزيناً فقطع المقرىء قراءته

واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، واذا هي تقول : « من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء وانما هو حفل فرح وابتهاج . ان هذا الرجل الذي تعزونه قد قتل امرأته ، وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وانما ازدرى هذا كله في سبيل سعادته بزوجه الجديدة ، فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها في الجهر ما لا يناله الرجل الكريم ذو المروءة الا سراً . وكنت في القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن امي سمعت ، فأنكرت اذناي ولم يصدق قلبي ولكني أشهد واشهدكم أني رأيت ورأى اخوتي ، وفيهم كاعب وصبيان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطا مسروراً ولم يمض على دفن امنا الا يوم وبعض يوم . فان رأيتم بعد ذلك ان هذا الرجل محتاج الى تعزيتكم فأقيموا والا فانصرفوا راشدين . »

ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وانما أخذت طريقها الى المحطة لتركب القطار الذي يحملها الى القاهرة . ولست أدري ماذا كان من أمر الجمع المحتشدين بعد هذه الفضيحة ! ولكني أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركي القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم في المدينة الا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة في طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويعفى ما يقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد

هاجرت اسرة الصبي من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت اسر اخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل اسرة بنفسها عن غيرها . وشغل كل واحد من أبناء الاسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه . ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبي طور الشباب بعد أن خاض اليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه وصوتاً يمس اذنه ، وتقع في نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرني ! لقد كنت معك في الكتاب أنسيت العفريت ! »

بلى ! لم أنس العفريت وهيهات ان أنساه . وقد استأثر من قلبي ذاك الناشىء بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من اخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبي أولئك الذين عرفتهم في الكتاب ، أو عرفتهم خارج الكتاب أولئك الذين اتصلت بينهم وبيني أسباب المودة أيام الصبا ، فكانت عشرتي لهم طويلة أو قصيرة ، بلى لم أنس العفريت . ولقد حدثت نفسي غير مرة حين هبطت إلى القاهرة ، لأطلب العلم في الأزهر الشريف بأن من الممكن أن القاه أو القى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رث ، وأصل منها ما انقطع ، وأنقل من صباي في المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وانميه ، وأجد في استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير . ولكني اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواما ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ دون أن القي العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلاً أو كثيراً . ولم أبح لنفسي أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما . ولو قد سألت لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهري الذي كنت احفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسي أن أسأل . وما أقل ما كنت أبيح لنفسي السؤال ! وما أكثر ما

يرفني الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت في الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس في الأزهر ومن تعلم في المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لي غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكني لم أبح لنفسي هذا السؤال فحفظت في قلبي من ذكر العفريت ما كنت اردده على نفسي حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل علي العفريت ذات مساء فمست يده كتفي ومس صوته اذني ، ومست نفسه نفسي ، واستأنفنا في الشباب حياتنا كما الفناها في الصبا .

كان حديث عهد بالجامعة يدخلها في أول العام الذي كنت اريد أنا أن أتركها في آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار لا في داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن في تلك الحجرة المتواضعة التي كنت آوي اليها أثناء الطلب . ولم يخطر له قط أن يدعوني إلى داره ولم يخطر لي قط أن أسأله عن هذه الدار . ولقد هممت أن أسأله عن اخوته فأجابني من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عني بالجواب وانتقل إلى حديث آخر . فأحسست أنه يستحي من اسرته فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج في احدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادة الثانوية والتحق بالجامعة . وكنت احاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل في ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علي بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لي ما كنت اريد أن أعرف من الأدب الفرنسي . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنني لن أنسى أنه قرأ لي أساطير لافونتين وقصة « كانديد » . واحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا

من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكني لا أجد الى ذلك سبيلا ، وانما أذكر أني صرفت خادمي وبقيت معه على أن يردني الى داري بعد أن نفرغ مما أردنا اليه . ولست أعرف ما هـــذا الذي أردنا اليه . ولكني أعرف أن الليل بلغ نصفه وانا كنا بعيدين عن داري قريبين من داره في حي من الاحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لي في صوت متكسر: « لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود إلى دارك في ضحى الغد . » وقد أجبته الى ما أراد ، فدرنا في حارات ملتوية وانتهينا الى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار الى حجرة بائسة قد القى عليها حصير بال ، والقى على الحصير وسادة ولحاف ، في هذه الحجرة قرأ لي جزءاً عظيما من « كانديد » ولم ننم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه . فلما كان ضحى الغد عدت إلى داري واستبقيته معي الى آخر النهار . وفي تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذي منعه أن يتحدث الي من أمر اسرته بشيء .

ومضت أشهر الصيف التي يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التي يلتقي فيها الطلاب ، ولقيت صاحبي فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً . فقد سافرت الى فرنسا في خريف ذلك العام ، وودعت صاحبي في القطار . وأشهد مانسيته أثنـــاء ذلك العام الذي قضيته في فرنسا . وأشهد لقد عدت الى مصر حين دعتنا الجامعة الى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفي نفسي أني سأجد عند صاحبي هذا عزاء عن هـــذا الدرس المقطوع . ولكني أصل الى القاهرة ، وأسأل عن صاحبي ، فأعلم أن حمى التيفوئيد قد أسلمته الى الموت أثناء الصيف .

وما اريد أن اصور للقارىء ما وقع في نفسي من حزن ولوعة ؛ فاني لم أكتب هذا الحديث لشيء من هذا ، وانما أذكر أني سعيت مع رفيقين لي

ذات يوم بعد أن صليت العصر الى قرافة المجـــاورين حيث قيل لي انه دفن، وأني أنفقت مع رفيقي وقتاً طويلاً وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدي اليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ؛ فلم نهتد الى هذا القـــبر . فعدنا يائسين وقد القينا التحية الى قبور القرافة كلها ، والقينا الزهر على قبر ما في قرافـة المجاورين . وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان، وكان أحد رفيقي يهون علي وينشدني قول الشاعر العربي القديم :

لقد لامني عند القبور عـلى البكا
رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قـــبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له ان الشجى يبعث الشجى
فدعني فهذا كله قـــبر مالك

## ٦

# صفاء

« كان ذلك ممكناً في تلك الايام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الامور ، وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء ، الى نور النعيم والرخاء ، فلست احب أن أخوض ، ولا أن تخوضي في هذا الحديث . »

وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفاً أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، وأشعل سيجارته في شيء من انفة ، ونهض في شيء من كبرياء ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيها أحداً . وظلت حنينة صامتة مبهوتة ، ثم كفكفت دموعاً كانت تريد أن تسيل ، ثم حزمت أمرها وقدرت في نفسها أنها ستراجع ابنها في هذا الحديث ، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شيء .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغي أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت الى القراء هذه الجملة الغامضة التي لا يذكر فيها الفاعل ، ولا المبتدأ الا متأخراً ، لأثير في نفوسهم هذه الغرابة التي تدعو الى الاستطلاع . ثم ذكرت بعد هذه الجملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد حاجة القراء الى هذا الاستطلاع . ثم فرقت بين الام وابنها على هذا النحو الغريب المريب ، فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يتصل وتحرص الام على أن يتصل . وهذا الحديث يمس الماضي

المنكر الذي خرجت منه الاسرة ، ويريد الفتى أن تنساه ، وتريد الام أن تفي له وتحرص عليه . وآية ذلك انها تكفكف الدمع ، وتقدر في نفسها انها ستعود إلى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، او حين يسفر الصباح . واكبر الظن انها تؤثر ان تتحدث إلى ابنها في اول النهار حين يجلس إلى فطوره هادىء النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من اعمال يومه الجديد شيئاً ، ولم يتح له بعد ان يذكر من اعمال امسه القديمة شيئاً . ذلك خير من التحدث اليه في المساء ؛ فهي قلما تخلو اليه في المساء لأنه يروح إلى داره عجلا ، فيصيب شيئاً من طعام مع الاسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عجلا ليلقى اترابه واصحابه ، فيسمر معهم شطراً من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحه على الاسرة كلها فأغرقها في سبات عميق .

ومن حق القارىء بعد هذا كله ان يعرف حنينة ونصيفاً ، وأسرة حنينة ونصيف ، وهذا الماضي القاتم الذي يكره الفتى ان يستبقي منه شيئاً ، وتحرص الام على ان تستبقي منه بعض الاشياء .

ولست اكره ان أؤدي للقارىء حقه هذا ان قبل ان ينتقل معي في الزمان والمكان جميعاً . وما اطلب اليه ان ينتقل معي الى زمان مسرف في القدم ، او الى مكان مسرف في البعد ، وانما نريد ان نعود الى اول هذا القرن ، وان نترك القاهرة الى مدينة من مدن الاقاليم في مصر الوسطى . فقد ينبغي لكل قصة ان يكون لاحداثها زمان ومكان يختارهما الكاتب او تختارهما الاحداث نفسها . والشيء الذي أؤكده للقارىء هو اني لم اختر ولم اكن استطيع ان اختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما اني لم اختر ولم اكن استطيع ان اختار اشخاص هذه القصة واحداثها .

وانما اختارت طبيعة الاشياء هؤلاء الاشخاص ، واجرت طبيعة الاشياء عليهم ما اجرت من الاحداث ، وارادت ان يكون هذا في آخر القرن الماضي واول هذا القرن، وان اشهد القصة ، واتأثر بها أشد التأثر واعمقه، وان ادخرها في نفسي لشيء لم اكن اعرفه حين شهدت القصة وادخرتها ، وقد اخذت اعرفه الآن حين بدأت املي هذا الحديث فأنا انما شهدت القصة وادخرتها لأتحدث بها إلى قراء هـــذا السفر ، بعد ان مضى على احداثها ما يقرب من نصف قرن .

بل اكاد اقطع بأني لم اختر ، ولم اكن استطيع ان اختار ان اتخذ هذه القصة موضوعاً لهـــذا الحديث ، وانما هي التي اختارتني لتصل من طريقي الى القراء . ولست استطيع ان ابين لذلك سبباً ؛ لأني لا استطيع ، والقارىء نفسه لا يستطيع ، ان اسأل القصة عن السبب الذي من اجله اختارت ان تذاع في هذه الايام ، والذي من اجله اختارت ان تذاع من طريقي انا ، ومن طريق هذه المجلة التي اكتب فيها .

وانما ارى اني قد فرغت اياماً واياماً ، لموضوع من موضوعات الادب الفرنسي ، وجعلت ادرسه واستقصيه لأتخـذه موضوعاً لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك اكثر ما كنت اريد ، ان لم اكن بلغت كل ما كنت اريد ، وجلست الى صاحبي لأملي عليه ما قدرت املاءه . ولكن صاحبي لا يسمع مني حديثاً عن شيء يتصل بالادب الفرنسي من قريب او بعيد ، وانما يسمع مني بدء هذا الحديث ويهم ان يراجعني ، كما همت حنينة ان تراجع نصيفاً . ولكني اعرض عنه بوجهي ، وانأى عنه بجانبي ، واشغل سيجارتي في شيء من جزم ، وامضي في الاملاء فيمضي هو في الكتابة ، ويظهر امامي اشخاص هذه القصة مزدحمين اشد الازدحام ، ملحين اعظم

الالحاح ، كلهم يريد ان يسبق إلى مكانه من هـذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموه ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا بـه ؛ فهم يريدون ان يستيقظوا ، وهم يريدون ان اذكرهم انا وان يذكرهم القراء ، وان يستردوا بذلك شيئاً من حيـــاة ، وإن كانت حياتهم تلك الاولى لأهون وأشقى من أن يفكر فيها أصحابها ، ومن ان يحرصوا على ان يستردوا منها نصيباً قليلا او كثيراً .

وهؤلاء الاشخاص كثيرون بعض الكثرة ؛ فـلا بد من ان اصطنع شيئاً من النظام الحازم لأردهم الى بعض القصد ، ولأظهرهم في اماكنهم المقسومة لهم من هـــذا الحديث . واماكنهم هذه لم اقسمها انا لهم وانما قسمتها لهم حياتهم الاولى نفسها . فهم يؤلفون اسرتين قبطيتين من اسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين ، قد انشأ الجوار بينهما ما ينشىء عادة بين الجيران من المودة والالفة ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم في غير تكليف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك في لذات الحياة وآلامها ، وفي مسرات الحياة ومساءاتها ، وفي هذه الاحداث التي تحدث ، والخطوب التي تلم ، والنوائب التي تنوب .

وكانت اسرة المقدس ميخائيل تادرس تعيش في دار ليست بالمسرفة في السعة ، وليست بالمسرفة في الضيق ، وانما هي دار متوسطة ، تألفت من حجرات قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الضر ، ولا يظهر عليها ما يلفت اليها احداً . كانت داراً متواضعة وان لم تكن حقيرة . وكانت تقوم في اول الشارع مما يلي القناة على منحدر يسير يكلف الساعي اليها قليلا من الجهد ، فينحدر اليها ان جاء من هذه الناحية ، ويصعد اليها ان جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى اليها سعياً هيناً على كل حال . وكان

المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ، قد اتخذ له حانوتاً يبعد عن داره بعض البعد ، يبيع فيه سقط المتاع من هذا الخرز الذي يتخذ الفقراء منه عقوداً يتحلى بها النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون التي يتخذ النساء منه اساور أو دوائر مفرغة يدخلن فيها سواعدهن ، أو يدخلنها في سواعدهن ، ويبهرن انفسهن كما يبهرن الرجال بألوانها الزاهية ورنينها الحلو ، وشيئاً من الاقمشة الرخيصة التي يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن وزينتهن حين يتبرجن .

وكانت لحانوته شهرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التي كان النساء يدرنها حول رؤوسهن ،فيفتن بها الرجال ويسحرن بها عيون الشباب . وكان المقدس ميخائيل يفيد من تجارته هذه اليسيرة ما يتيح له ان يكفل لأهله حياة ، ان لم تكن رخية كل الرخاء ، فلم تكن ضيقة كل الضيق ، وانما كانت شيئاً بين ذلك يسمح لهذه الاسرة ان ترى نفسها من الطبقة المتوسطة وان تطمح الى ما تطمح اليه هذه الطبقة من الآمال التي كانت في ذلك الوقت متواضعة اشد التواضع .

ولم تكن هذه الاسرة ضخمة ولا كثيرة العدد ، وانما كانت تأتلف من ميخائيل وزوجه حنينة ، وابنها نصيف وابنتها صفاء .وواضح ان هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا النحو الفصيح ، وانما كان ينطق به مقصور الالف لا ممدودها . وكان النطق به يثير في نفوس السامعين انه مستعار من تلك الغدائر المعدنيـــة التي كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويسمع لهـا حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الآذان .

وقد طمع ميخائيل ان يرفع ابنه عن المنزلة التي كتبت له هو في

الحياة ، فلم ينشئه في التجارة ليخلفه في الحانوت حين تقعد به السن ، وانما ارسله الى المدرسة المدنية ، بعد ان اختلف الى الكتاب القبطي عاماً وبعض عام ، واضمر فيما بينه وبين نفسه الا يكتفي بالمدرسة الابتدائية ، وانه يرسله اذا استطاع الى القاهرة ليتعلم في بعض مدارسها ، وليكون موظفاً من موظفي الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقاً جديدة غير الطريق التي سلكها هو وسلكها ابوه من قبله .

وطمعت حنينة في ان ترفع ابنتها عن المنزلة التي قسمت لها هي في الحياة ، فأرسلتها الى « المعلمة » كما كانت الامهات في الطبقة المتوسطة يرسلن اليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنوناً من التطريز والتدبيج ، والتأنق في التفصيل وصناعة الازياء .

وقد اختلف الصبي الى المدرسة ، واختلفت الصبية الى المعلمة ، ورضيت الاسرة عن نفسها وعن تربيتها لابنيها اعواماً . وظفر الصبي بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، واخذت الصبية من فنون المعلمة ما استطاعت ان تأخذ . ونظرت الاسرة فاذا هي مضطرة ان ترسل الصبي الى القاهرة ، والى ان تمسك الصبية في الدار . والله يعلم ما تكلف المقدس ميخائيل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى اليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد . وقد الحق الفتى بمدرسة ثانوية ، فأقام فيها ما شاء الله ان يقيم عاماً وعاما وعاما دون ان يصيب فيها نجحاً ، وانما هي السنة الاولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة الى فصله لكثرة ما اخفق ، فيلحق بالمدرسة القبطية الكبرى التي كانت في ذلك الوقت تتلقى من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المخفقين ، او من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، او من تقصر أيدي آبائهم

عن اجور التعليم في مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون الا ان يتعلم ابناؤهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم ان يجدوا لأنفسهم مكاناً في مدرسة من المدارس العالية ، او عملا في ديوان من الدواوين. وقد اقام نصيف في المدرسة الحرة عاماً وعاماً ولكنه لم يصب فيها نجحاً كما لم يصب في المدرسة الحكومية نجحا . وثقلت النفقة على أبيه ، وثقل الحزن على امه ، وضاق الفتى بأبيه وامه ونفسه أيضا ، واذا هو يقترح على أبويه ذات عام أن يتحول عن هذا التعليم الثانوي الذي لم يخلق له ، الى تعليم آخر يسير قريب ، لا يحتاج الى كثير من ثقافة ، ولا الى الحاح في عمل ، ولا الى فضل من جهد ، ولا الى طويل من وقت ، وانما هو عام أو بعض عام ، ثم يتقدم الطالب الى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصباً من مناصب الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف . وماهي الا ان ينفق فيها الفتى عاماً أو أقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب فيه ما أراد من نجح ، ويعود الى أهله ومعه الدبلوم قد لفه لفاً أنيقا ، ووضعه في حرز أنيق اتخذ من الصفيح ، وجعل الأب ينظر الى الدبلوم يحاول أن يقرأ ما فيه ، وجعلت الام تنظر الى الدبلوم تعجب بزينته . واختصم الأبوان بعض الاختصام أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ! أتدسها الام بين ثيابها ، أم يخفيها الأب في درج من ادراج مكتبه القديم . ولكن المهم هو أن المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه ، فأنفق اكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة اكثر مما كانت سنه تستطيع أن تحتمل وباع في سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحلى المتواضع واضطر الاسرة الى شيء من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذي لا يطاق ، لولا شيء من فسحة الأمل . ولم

يدرك الفتى ما ادرك من نجح حتى كان المقدس الشيخ مضطراً الى ان يقعد في داره ، وينتظر الرزق من هـذا المرتب الضئيل ، الذي كانت الدولة تجريه حينئذ على الموظفين في البرق أول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الـدولة بخيلة حقاً في تلك الأيام . فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة والتمرين ، ويؤجر في أثناء ذلك ثلاثـة جنيهات في الشهر ، لا تحسب له جملة ، وانما تحسب له مياومة اثناء التمرين عشرة قروش في اليوم لا تزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حراً في اختيار مكتب البرق الذي يعمل فيه . ومتى كان عمال الدولة وموظفوها أحراراً في اختيار المكاتب التي يعملون فيها ! انما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضي النظام ان يرسلوا . فأرسل الفتى الى أقصى الصعيد ، وأقامت اسرتـه في أدناه . وجعل الفتى يقبض اجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه الى اسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت اسرته ان الآمال لا تصدق أصحابها دائما ، وانما تكذبهم في كثير من الاحيان . فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصباً من مناصب الدولة ، وأصبح فرداً ممتازاً من هذه الطبقة الممتازة طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيراً بائساً محتاجا ، وما زالت اسرته متوسطة ترد الى الفقر يوماً بعد يوم ، وتدفع الى الضيق عاماً بعد عام . والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة . والامتياز يكلف أصحابه كثيراً من المال . فلا بد من أن يعيش الفتى بين اترابه عيشة ملائمة ، ومن ان يتخذ من الزينة ما يـلائم طبقته ، ومن أن يحيا حياة لا ينظر اليها أترابـه في شيء من الاستخفاف به او الاشفاق عليه . وكان هـذا كله يرهق الفتى من أمره عسراً ، وربما اضطره بين حين

وحين الى ألا يرسل الى ابويه ما تعود ان يرسل اليهما من النقد ، او ان يرسله اليهما منقوصا . فكان هذا يحفظ الاسرة ويغيظها ويضنيها . فلم تكن حاجتها الى الحياة الملائمة بأقل من حاجة الفتى . والفتى وحيد ، وهي اسرة مؤلفة من اشخاص ثلاثة ، فحقها ان يرسل اليها اكثر المرتب ، وان يكتفي الفتى بأقله . فكيف اذا لم يرسل اليها الا اقله ! وكيف اذا لم يرسل اليها شيئاً ! وهي بعد ذلك قد افنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت في سبيل هذا الفتى . فانظر الى الابناء كيف يجحدون حقوق الاباء . وانظر الى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ . وانظر الى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرون انفسهم بالخير ويختصونها باللذات ويتركون آباءهم وامهاتهم واخواتهم يشقون بالنقص في الاموال والثمرات بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك أنفقت الاسرة بعد نجح ابنها في الامتحان وظفره بالمنصب اعواما ذاقت فيها من البؤس المادي والمعنوي ، ما لم تذقه حين كان الفتى صبياً يختلف الى المدرسة الابتدائية او غلاماً يختلف الى المدارس في القاهرة .

اما الاسرة الاخرى فأسرة المعلم يونان . كان زعيمها كاتباً متواضعاً في دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً على دفاتره او محاسبا للناظر او مراقبا للمعاون ، ويعود الى اهله آخر النهار راضيا عن نفسه ولكنه متعب مكدود ، فلا يكاد يصيب معهم شيئاً من طعام ويسمر مع جاره شيئا من سمر حتى يأوي الى مضجعه وقد بلغ الاعياء به اقصاه . ثم لايكاد الصبح يتنفس حتى يراه في الطريق العامة غاديا على عمله في الدائرة او في الحقول . وكان الاجر الذي يصيبه من هذا العناء قليلا ضئيلا لا يكاد يقيم الأود لاسرة تأتلف من ثلاثة اشخاص ، هم المعلم يونان ،

وزوجته مرجانة ، وابنها عبد السيد .

وكان المعلم بونان رجلاً متواضعاً ، لا يرفع نفسه عن طبقته ، ولا يحاول أن يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وانما حاول ان يعلم ابنه مهنته هو ، ليكون كاتباً في الدائرة كما كان هو كاتباً في الدائرة وكما كان أبوه من قبله كاتباً فيها أيضا . وكان أقصى همه ان يحسن الصبي الأخذ عنه والاقتداء به ، حتى إذا أدرك اول الشباب استطاع ان يعينه على عمله ، وان يلتفت اليه المأمور لعله أن يرضى عنه ويعطف عليه ؛ فيأجره قرشين او قروشاً في اليوم تعين الأسرة على احتمال اعباء الحياة . ولكن الصبي لم يكن ذكي القلب ، ولا محباً للعمل ، وانما كان كسلا خامداً يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فإن لم تسنح له آثر حياة هادئة هي الى الذهول اقرب منها الى اي شيء آخر . وكان ذلك يغيظ اباه ويحفظه ويدفعه ان يقسو عليه احياناً . ولكنه كان وحيد ابويه ، فكان المعلم لا يعنف به الا ليرق له ، ولا يشق عليه الا ليرفق به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض بأعبائه ، والفتى يتقدم في العلم بمهنة ابيه متباطئاً متثاقلا . حتى اذا اضطر الشيخ الى القعود في داره كان الفتى اجهل واكسل من ان يقوم مقامه ، فلم تستبقه الدائرة الا رعاية لحق ابيه ورفقاً باسرته ، ولم تمنحه من اجل ذلك الا نصف ما كانت تمنح أباه من الأجر .

واضطرت مرجانة الى ان تبرح الدار ، وتسعى بعض السعي على شيخها القاعد لترزقه وعلى ابنها الخامد لتعينه ؛ فجعلت تسعى الى القرى القريبة تشتري من بعض اهلها ما يريدون ان يبيعوا من جبنهم وزبدهم ، تحمل ذلك في قصعة ضخمة ، وتغطيه بشيء من العشب الاخضر الرطب

يحفظ عليه رطوبته ويجذب اليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما يتيح لهـا شيئاً من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان اليه .

وقد سعت الاسرتان المتجاورتان في طريق واحدة الى الضيق ، ثم الى الضيق الشديد ، ثم الى الاعدام والحرمان ؛ فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعـدان للبطالة والحديث . وجعلت مرجانة وحنينة تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على اثقال الحيـاة ، وتتجاذبان اطراف الحديث كما يقال . وجعلت صفاء ( بألفها الممدودة أو المقصورة ) تلقى عبد السيد حين يغدو الى عمله في الدائرة ، وحين يروح من عمله الى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هـذه الاحاديث الفارغة ، التي لا تؤدي شيئاً ولا تدل على شيء ، وانما تشغل اصحابها عن انفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم .

ولكن الشاب ماكر مـاهر ، ينتهز الفرص ، ويختلس الوسائل اختلاساً ؛ فهو يشيع في هذه الاحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريـد ان يملأها ، فيعجزه ذلك في اول الامر ، ولكنه لايعرف العجز ، ولا اليأس ولا الاخفاق ، وانما هو ملح دءوب ، يخطئه النجح هـذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة . وهو يسلك الى غايته طرقاً مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها الا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان الغارون من تمحيص الحياة وتعليم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فإذا الشباب يجري فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من اذن عبد السيد وقلبه موقعاً غـير مألوف . وحركة يأتي بها عبد السيد فإذا الشباب يجري فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعاً غير مألوف . واذا

الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وان يضاف اليها امثالها . واذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد ان تتكرر وان يضاف اليها أمثالها . واذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلقاه ، ومشغول بصاحبه حين ينأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر النهار . واذا اللقاء الذي كان يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئاً تدبر له الخطط وتبتغي اليه الوسائل . واذا الحديث الذي كان يكون بينهما فارغاً ليس وراءه شيء ، قد جعل يصبح مليئاً وراءه كثير من الاشياء ، واذا الاسرتان تلحظان ان لهذين الفتيين شأناً ، فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، ثم تبتسم قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين . ثم يتحدث المقدس ميخائيل الى حنينة ، ويتحدث المعلم بونان الى مرجانة . ولا تقول احدى الاسرتين للاخرى شيئا ، وانما تنتظر كلتاهما ان تكون الاخرى هي التي تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يثور في نفوس الشيوخ من خواطر ولا بما يضطرب في عقولهم من تفكير ، وانما هو ماض لغايته لا ينظر الى وراء ، وانما ينظر الى امام ، والى أمام دائماً ، حتى لا يلفت الاسرتين وحدهما الى نفسه والى ما أحدث من صلات ، وانما يلفت اسراً اخرى من الجيران . وهناك يتنبه الشيوخ ، فتتحدث مرجانة الى حنينة ، ويتحدث المعلم الى المقدس ، وتصبح الخطبة شيئاً مقرراً متفقاً عليه .

ونصيف مقيم في غربته تتقاذفه المدن في أعلى الارض وفي أسفلها ، وقد ثبت في منصبه فلم يقبض أجره مياومة ، وانما أصبح موظفاً بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه حتى بلغ أربعة جنيهات ونصف جنيه يخصم

منها المعاش آخر الشهر ، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال ، الا أنه لم يزد وحده ، وانما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفاً مثبتاً . زاد مرتب الفتى ، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد ، وانما ظل كما كان : يصل اليهما أحياناً كاملا ، وأحياناً منقوصاً ، ويتخلف عنهما بين حين وحين .

ويقبل الفتى ذات يوم في اجازة من اجازات الموظفين ليرى اسرته ، فترى المدينة منه شاباً رشيقاً أنيقاً لم تعرفه من قبل ، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين ابناء الزراع والتجار . ويرتفع رأس المقدس حين يرى اعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به ، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع او ذاك ، وبهذه الحارة او تلك . ويمتلىء الفتى بنفسه تيهاً واعجاباً حين يرى تهافت الناس عليه وسعيهم اليه ، يحييه بعضهم من قريب ، ويحييه بعضهم من بعيد ، ويعجب به أولئك وهؤلاء . ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئاً من الكبرياء ، فينكره بعض الناس في قلوبهم ، وينكره بعض الناس بألسنتهم . ويشفق الاب والام على ابنهما من حسد الحاسدين ، ويتمنى الاب والام ان يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به ولينعما بحضره ، ويتمنيان مع ذلك ان يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد الحاسدين . ويعود الفتى بعد ايام الى عمله ، وقد رضي عن نفسه ، ورضي عنه ابواه ، ورضي عنه اكثر اهل المدينة ، وضاق به اقلهم . وكأنما الم الفتى بهذه المدينة إلمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه للمرة الاخيرة . فما يكاد الفتى يسافر وتمضي على سفره ايام حتى يحس المقدس من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت اليه . ولكن الضعف يزداد

ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر الى لزوم داره ، ثم الى لزوم فراشه ، ثم الى فراق هذه الدنيا ويعود الفتى مرة اخرى الى المدينة حزيناً كئيبا ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيداه الا رشاقة واناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلاباً لحبهم له وعطفهم عليه ؛ فقد ذهبا بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، ورداه الى شيء من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شيء فقد ألقي في روع الفتى انه اصبح بعد موت ابيه رجلا يحتمل التبعات ، وينهض بأعباء الاسرة . وقد واجه التبعات والاعباء مواجهة حسنة ، فشمل امه واخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره في السعي حتى استطاع ان ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التي كان يعمل فيها ، إلى مدينته هذه التي تقيم فيها اسرته ، واذا هو موظف في مكتب البرق بالمدينة يقيم في اسرته ويرعاها ، ويقوم منها مقام ابيه .

وتمضي امور الاسرة كما تستطيع ، او على خير ما تستطيع ، فقد اقام الفتى في داره وعاش مع اهله ، ودبر امره خيراً مما كان يدبره أثناء الغربة ، فاستقامت له ولاهله حياة لم تكن تستقيم لهم من قبل . وكم تمنت حنينة — لو كان ينفع التمني — ان يعود المقدس فيشارك في هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد برؤية ابنه غادياً على العمل ، او رائحاً الى الدار في زيه ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذي يملأ القلوب روعة ورضا .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه في مكتب البرق ، وبزملاء آخرين يعملون في المحطة ، وبجماعات اخرى من الموظفين يعملون

في المحكمة أو في مكتب البريد . وإذا هو يرقى باسرته حقا الى هذه الطبقة الممتازة التي طالما ود أبوه لو يرقى بها اليها . وإذا هو يمتاز بين هؤلاء الموظفين الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل في قهوة ذلك الرومي التي كانت تقوم على شاطيء القناة قريباً من المحطة ، والتي كان الموظفون ، ولاسيما الشباب منهم ، يسعون اليها حين يدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين مرحين لاعبين مداعبين حتى يتقدم الليل .

وفي ذات صباح يجلس الفتى الى فطوره وامه الى جانبه تنظر اليه وتعجب به ، واخته صفاء قائمة بين يديه تخدمه تذهب وتجيء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الاناء ، وإذا الفتى يحتال حتى يبعد اخته ، ويخلو الى امه فيلقي اليها في همس سريع أو سرعة هامسة ، أن زميله فلاناً يخطب اليه اخته ، وانه سعيد بهذه الخطبة يرى فيها مزيداً من رقي وفضلاً من رخاء . فهذا الزميل فتى كريم من اسرة كريمة ، قد فقد ابويه ، فهو اذن سيد نفسه . وهو يقبض في آخر الشهر مرتباً كالذي يقبضه هو . وهو يريد ان يكون له أخاً . واذا قبلت خطبته وتم زواجه فسيعيش في الدار ، وسيكون لأمه ابناً ثانياً ، وسيجتمع المرتبان ، وستغرق الأسرة في نعيم ورخاء لم تكن لترجوهما او تفكر فيهما . وتسمع الام هذا الحديث فيقع من قلبها موقعاً غريباً فيه كثير من الاغراء ، ولكنه يثير كثيراً من الحزن والخوف والاسى . فابنتها مخطوبة او كالمخطوبة لجارها الفتى ؛ قد ذهب زوجها الى الدار الاخرة وهو مقر لهذه الخطبة راض عنها مغتبط بها ، وفي نفس ابنتها شيء من هذا الفتى الجار ، ليس في ذلك شك . ثم تثوب الشيخة الى نفسها بعد ان شكت غير طويل ، وتقول لابنها في صوت هادىء رزين : وددت لو كان ذلك يابني ، ولكن

اختك مخطوبة أو كالمخطوبة ، قد احبها جارنا عبد السيد وكأنها تحبه ، وقد تحدثنا في خطبتها وقبلها ابوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث امه حتى تأخذه الكبرياء ، ويعاوده الاعتداء بالنفس ، ويقول لامه في صوت المغضب الذي كادت تخرجه الموجدة عن طوره : « كان هذا في تلك الايام السود ، فأما الآن فما احب ان اخوض ولا ان تخوضي في هذا الحديث . » ثم يشعل سيجارته في انفة وينهض في كبرياء متثاقلة وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فيها احداً.

وقد صبرت حنينة نفسها على هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه الى ابنتها وأزمعت أن تراجع فيه ابنها . وراجعته مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشيء ولم تلق منه إلا ازوراراً واعراضاً ، حتى أنذرها ذات يوم بأنها ان لم تذعن له فسينتقل من هذه المدينة كما انتقل اليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة المشردة ، وسيتركها تعيش مع ابنتها في ظل هذا الفتى الغافل الذي لا غناء فيه ، وسيرسل إليها ما يستطيع أن يرسل إليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل في حياة ابيه .

ولم تتعود الأمهات في مثل هذه البيئة مقاومة ابنائهن ، وانما تعودن الاذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون . والفتى يقوم مقام أبيه ، فهو سيد الاسرة وصاحب الامر والنهي فيها ، لا ينبغي أن يلقى منها مقاومة ولا اعتراضاً . فما أيسر ما تذعن حنينة لابنها ! وما اسرع ما تحاول أن تحمل صفاء على الاذعان ! وصفاء ليست في حاجة إلى ان تحمل على الاذعان ، فهي مذعنة بطبعها لما يريد أخوها ولما تحب أمها . ومتى استطاعت الفتيات أن يخالفن عن امر الاخوة والأمهات ! هي إذن مذعنة الارادة ، ولكنها ثائرة القلب . وقد بذلت حنينة

جهداً غير قليل لتغري ابنتها بمثل ما اغراها به ابنها من الرخاء والنعيم وارتفاع المنزلة، وامتياز الطبقة، وبما سيتاح لهـا من زينة وترف لم تكن لتظفر بهـا لو اقترنت إلى هـذا الفتى المتواضع الفقير الذي لا يكسب قوته إلا بالجهد والمشقة، وسعي أمه لتعينه عـلى تحصيل ما تحتاج الأسرة اليه. وكانت صفاء تسمع لهذه الاحاديث، فتذعن إرادتها ويثور قلبها، وتحاول أن تظهر الرضا فلا تجد إلى اظهاره سبيلا.

ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنينة إلى دار مرجانة ثم الى غيرها من الدور، ويصبح حديث اهل الشوارع، ثم حديث من يعرف الأسره من الناس. فأما مرجانة فتسمع ولا تقول شيئاً. واما المعلم بونان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على أن يقول: واين يكون ابننا من هـذا الفتى! وابننا كاتب لا يكاد يكسب قوته وهذا الفتى موظف ممتاز! واما الناس فأقلهم يغبط صفاء. واكثرهم يحسدها. وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف الجريمة، ومرة أخرى بقتل نفسه، ثم يرد الى هدوء منكر من ورائه شر عظيم.

فهو يغدو ويروح بين اهله وعمله قد انطوى على نفسه، وانطوت نفسه على ما فيها، فهو لا يتحدث إلى احد في هذه الخطبة المعلنة، وفي هذا الزواج المنتظر، ولا يحب أن يتحدث اليه احد فيها. واذا تحدث الناس اليه في شيء من ذلك اعرض عن الحديث ولم يلق اليه بالا، كأنه غريب عن هذه البيئة التي يعيش فيها، لا يعنيه شيء مما يفعل الناس حوله أو يقولون. وقد كانت مرجانة تهيء نفسها لتفيض على ابنها شيئاً من عطف، وفضلا من حنان تريد أن تعزيه عن محنته، وتواسيه في هذه الملمة التي نزلت بـه فبغضت اليه الحياة، وألقت بينه وبين الأمل

حجباً صفاقا وأستاراً كثافا . ولكنها لم تر من ابنها حزنا ، ولم تسمع منه شكاة . وحاولت أن تنفذ الى ذات نفسه ، فلم تبلغ مما حاولت شيئا ، وظنت آخر الأمر أنها اكبرت من هذا الامر صغيرا ، وعظمت منه حقيراً.

واسرفت في حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يحب ويسعد بالحب، وأن هذه الخطبة قد ردته من الكآبة والحزن واليأس الى ما لا يطاق . ولكنها تنظر فترى ابنها ساهياً لاهياً ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشيء ، ولا يظهر عليه ما يدل على أنه حزين أو يائس أو كئيب . فقد كان الفتى عابثاً في حبه إذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك في ان مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها ولهوه وغفلته ، وإنما آذاها ذلك في نفسها ، وأضاف إلى حزنها القديم حزناً جديداً ، وإلى ما ألفت من خيبة الأمل في فتاها الذي لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديد في فتاها الذي لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به اسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى . وهي ترد عطفها وحنانها ورحمتها واشفاقها إلى نفسها البائسة الكئيبة التي كانت تريد ان تجد شيئا من الروح في اظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والاشفاق . ولست أدري بأي الأمرين كانت مرجانة أشد تأذيا : بخيبة املها المجددة في ابنها الوحيد ، ام بما اضطرت اليه من كبت عواطفها ورد نفسها إلى الاجداب بعد أن كادت تخصب ، والى الفقر بعد ان كادت تغني ، وإلى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شيء أدفع لنفوس الأمهات الى اليأس القاتل

من هـذا الحرمان الذي ترد اليه رداً وتكره عليه إكراها . فما نفس الام اذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للالم ! وما نفس الام اذا لم تجد الرضا والغبطة والاعجاب حين يأتي ابنها بما يدعو الى الرضا والغبطة والاعجاب ! وهذه مرجانة فد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ وقت طويل ، وهي ترى جارتها حنينة ترضى عن ابنها نصيف كل الرضا وتعجب به كل الاعجاب ، ويزيد رضاها واعجابها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويثنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون في بعض ما مضى من الوقت ، ولا يدعونها بأم نصيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولد ابنها ، وحين كان صبيا أو شابا يختلف الى المدارس ، وحين كان موظفاً غائباً لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والاناقة وجمال الزي وروعة المنظر ، وانما يدعونها أم الافندي . يلغون الهمزة ، ويلقون فتحها على اللام فيقولون « أم لفندي » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والاعجاب به منذ تبينت أنه خامل خامد ، لا يغني غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقي لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان ، حين يلم به الخطب او يلح عليه الهم او ينزل به المكروه . فابنها لا يحس خطباً ولا هما ولا مكروها ، ولا يجد حاجة الى عطف أو رحمة أو حنان . ولو قد شملته امه بشيء من ذلك لما احسه ولا ذاقه ولا التفت اليه . هي اذن شقية بخيبة الامل ، شقية بكبت العاطفة . وهي تحاول أن تتحدث الى زوجها الشيخ في بعض ذلك ، فلا تسمع منه الا هذا الجواب يرده عليها في ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابننا الخامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذي تبتسم له الحياة !

وهمت مرجانة ان تتحدث ذات يوم الى ابيها في بعض ذلك ، فقال لها متضاحكا . « ما نحن وذاك ! ان المال اقوى قوة ، واعظم بأساً ، وأوسع سلطاناً ، واشد اغراء من الحب ، وما ينبغي للفقراء ان يحبوا . » وهمت ان تمضي في حديثها فكفها عن ذلك باغراقه في ضحك طويل ، وبانتقاله الى احاديث الحقل والعاملين فيه ، والى احاديث الدائرة وموظفيها ، حتى قال ابوه الشيخ : « دعي هذا الفتى فانه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل . » وسمع الفتى مقالة ابيه ، فازداد اغراقاً في الضحك ، ثم انصرف عن الدار كانه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طياً ، وهو ان المال اقوى من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ممهدة كل التمهيد ، فليس بينه وبين صفاء الاجدار واحد يفصل بيتيهما . فاذا ارتقى الى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق او صفيق . فالاسوار بينه وبين الخطبة والاسوار بينه وبين الزواج كثيفة منيعة لا سبيل الى اقتحامها ولا الى النفوذ منها . ومتى استطاع الفقير المعدم أن ينفذ من أسوار المال والثراء ! ولكن الاسوار بينه وبين الحب لا وجود لها ، وانما هي حيلة واسعة أولا ، وجراءة جريئة ثانيا ، وصبر للنفس على ما تكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد في ضمير الفتى يقظان ويتردد في احلامه نائماً . والفتى يملك امره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئاً ولا يقول شيئاً ولا يخلي بين الناس وبين ما اخفى في ضميره من هذا السر المكتوم ، ولم تكن حال صفاء خيراً من حاله ، ولكنها كانت ادنى منه إلى الصراحة ، وأسرع منه إلى الاذعان . لم

تكن نفسها عسيرة ولا معقدة ، ولم يكن لها حظ من مهارة او مكر ، وإنما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقداً ولا كيداً ولا استخفاء . وهي من اجل ذلك لم تنطو على نفسها ، ولم تستخف بما في ضميرها ، وإنما أذعنت خاضعة الارادة ثائرة القلب كما قلت فلما اشتد عليها الالحاح ، وكثر حولها الاغراء ، وجعلت ألوان الطرف وفنون الهدايا تستبق الى الدار ، رضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ؛ فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساماً ظاهراً ورضا يكاد يشرق له وجهها أحيانا ، وكانت تمنح الحب حزنا دخيلا واملا دفيناً ، ودموعا لعلها أن تنهل حين تخلو الى نفسها في ساعة من ساعات النهار أو في ساعة من ساعات الليل . وهي بعد لم تر خطبها ولم تسمع له ، وانما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الأحاديث . فكان خطبها ظلا يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاءون . وكان حبها شخصاً رأته من قرب واستمعت له وتحدثت اليه ، وتمثلته في نفسها ، واستحضرته في ضميرها . وقد جعلت منذ حين لا تراه الا مخالسة ، ولكنها تراه على كل حال . وهي تستطيع إن شاءت ان تبتغي الوسائل للقائه . ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء . ولو فعلت لاستأنفت التحدث اليه والاستماع له ، ولمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمنعه من قبل . ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل . خواطر تتردد في نفس الفتاة وهي مشبهة شبها قويا او ضعيفا لخواطر تتردد في نفس الفتى ، وربما خطر لصفاء ان لو كان جارها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع احد ان يصدها عنه او يردها عن حبه ، ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم اوده واود ابويه . فما اجتماع الفقر الى الفقر ، وما افتران

البؤس الى البؤس ، وما التباس الاعدام بالاعدام ! أحق اذن ان الحب لم يخلق للفقراء ، وان الفقراء لم يخلقوا ليحبوا ، وانما خلقوا ليكدوا ويجدوا ويعملوا ويكسبوا القوت ، فان بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وان لم يبلغوه فان في الشقاء لهم سعة ، وفي الموت لهم راحة وروحا ؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الالم والحزن واليأس . وكان قلب الفتاة يجد ما كان قلب الفتى يجد من اللوعة والحسرة والاسى . وكان احب شيء اليها ان تفضي الى الفتى بذات نفسها ، وأحب شيء الى الفتى ان يفضي اليها بذات نفسه ؛ ولم يكن الى ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم فقد حيل بينهما وبين اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك الا حائط واحد رقيق . ولو قد صعد كلاهما الى سقف داره مخالسة لاتيح لهما اللقاء والحديث .

والايام تمضي على ذلك وتتبعها الليالي ، فازداد المعلم يونان اتصالا بمصطبته ولزوما لها ، وازدادت مرجانة تطويفا في الارض بقصعتها تلك التي تغطيها الاعشاب . ومضى الفتى في حياته الكسلة العاملة ويقظته الغافلة الذاهلة . واتصل النشاط واشتدت الحركة في دار صفاء ، واحس الناس ان يوم الزواج يدنو قليلا قليلا . وقد اطل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمة الثغر ، عابسة النفس ، تظهر الرضا وتضمر السخط . واقبل القسس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسس مراسمهم فرتلوا وكلوا وقرعوا الاجراس والنواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التي لا يفصمها الا الموت . وكان المعلم يونان مستلقياً على مصطبته في الجانب الايمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيد واجمة ساهمة ، تجري على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم :

« اين ابنك يامرجانة ؟ » فتقول مرجانة في صوت مبتل : « لعلك كنت تريد ان يشارك في هذا الفرح ! »

فيعود الشيخ الى صمته ، وتمضي الشيخة في وجومها الباكي او بكائها الواجم . ولم تشعل في دار مرجانة لذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة في تلك الليلة نوراً ، وانما كانت النار ذاكية والنور متألقاً في دار حنينة ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم يتقدم حتى يوشك ان يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون في فرحهم ومرحهم قد اخذوا يتشوفون ويتشوقون الى مثل ما تعودوا ان يشهدوا في تلك الليالي . ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئاً ، ولم يسمعوا شيئاً ، وقد شملهم فتور غريب بغيض . وترى اعقاب الليل المنهزم فتى ينسل من دار حنينة مستخفياً فيما بقي من ظلام . ويسفر الصبح شاحباً كئيباً وتشرق الشمس بنور ربها ، ولكنها ترسل على ذلك الشارع اشعة فاترة خائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه الى الحركة ، ولا تكاد تخرج اهله من صمتهم الى الكلام . وهؤلاء نفر من الناس قد اقبلوا يسايرون شاطيء القناة ، حتى اذا بلغوا المنحدر هبطوا الى دار مرجانة فأدخلوا فيها جثة قد احتز القطار رأسها احتزازاً . ويرتفع صوت مرجانة مولولا ، فلا يكاد يتجاوز دارها حتى يجيبه من دار حنينة صوت آخر مولول قد ارتع بالاعوال . ويعلم الناس قبل ان ينتصف النهار أن الفتى قد نام ينتظر الموت حتى جاءه به قطار الصعيد ، وان صفاء قد أصبحت مزوجة كالمطلقة ، ففصمت تلك العقدة التي عقدها القس والتي لا يفصمها الا الموت .

تقول حنينة في نحيبها : « ياليتنا لم نعرف المال ! » وتقول مرجانة في نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف الحب . » ويقول المعلم يونان في صوته الهادىء المتقطع : « فقد عرفنا الموت الذي هو أقوى قوة من المال والحب جميعاً . »

## ٧

### خطر

لست أبغض شيئاً كما ابغض القاء الـــدروس في الوعظ والارشاد وتنبيه الغافلين وايقاظ النائمـــين وتحذير الذين لا يغني فيهم التحذير ولا النذير . وأنا مع ذلك مضطر الى هـــذا أشد الاضطرار ، أراه واجباً تفرضه الوطنية الصادقة ، وتفرضه الكرامة الانسانية ، ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل ابانها ، وعـلى ان يسلك هذا الوطن البائس طريقه الى التطور في أناة ورفق وهـدوء ، لا تعصف به العواصف ، ولا يجري عليه ما جرى على بعض الامم من هـذه الثورات التي لا تبقي على شيء .

وقد يذعر القارىء حين يقرأ هـــذا الكلام . وكم أتمنى ان يكون ذعره صادقاً يبلغ القلب ، ويصل الى اعماق الضمير ، ويدفع الى العمل الذي يعصم مصر من هـذه الأهوال التي تنتظرها في طريقها الى التطور والرقي .

موظف من موظفي الدولـــة ، ليس بالعامل الذي يحسب له اجره مياومة ، وانما هو من الموظفين الدائمين — او المثبتـــين — كما يقول الحكوميون هـذا الموظف في الدرجة السابعة ، يبلغ مرتبه اثني عشر جنيهاً او اقل من ذلك قليـلاً ، له زوجة وخمسة من الولد ، وقضت عليه ظروف الحياة ان يعول بني اخته وهم ستة ، وان يعول عمـة له تقطعت

بها اسباب الرزق ؛ فهم اذن اربعة عشر شخصاً ، يعيشون او يراد منهم أن يعيشوا على هذا المرتب الضئيل . والعيش طعام وشراب ولباس ، والتجاء الى دار يظلهم سقفها ، وتحميهم جدرانها من أن تأخذهم الشرطة ، كما تأخذ المتشردين . وطبيعي الا ينهض هذا المرتب الضئيل بحاجة هذه الاسرة الضخمة ، فيكون الافتراض ، ثم يكون العجز عن اداء الدين ، ثم يكون امتناع القادرين عن الاقراض ما داموا لا يستردون ما يقرضون ، ثم يكون الحرمان ، لا اقول من طيبات الحياة ، فليس لمثل هذه الاسرة امل في طيبات الحياة ، وانما اقول مما يقيم الاود ويرد ألم الجوع . ثم يكون الحرمان ، لا اقول من الثياب التي تقي حر الصيف وبرد الشتاء ، فليس لهذه الاسرة في هذه الثياب امل ، وانما اقول من الثياب التي تستر ما يجب ان تستر من الاجسام . ثم يكون الحرمان ، لا اقول من الفرش الوثيرة ، فليس لهذه الاسرة في الفرش الوثيرة امل ، وانما اقول من الحصير الذي يحول بين اجسامها وبين الارض ، ومن الغطاء الذي يخيل اليها انها تحاول ان تتقي به البرد . ثم يكون الضيق بالحياة ، ثم يكون الالتجاء الى الاغنياء بطلب المعونة ، ثم يكون اعراض الاغنياء عن هؤلاء اللاجئين البائسين ، اما لأن قلوب الاغنياء قاسية ، واما لأن هؤلاء اللاجئين ليسوا وحدهم طلاب العون وانما لهم شركاء في الالتجاء والتماس البر ، واما لأن الاغنياء يرون ان من الحق عليهم ان يحسنوا ولكنهم يرون ان من الحق ان ينظم الاحسان حتى لا ينتشر الأمر ، وحتى لا يلجأ اليهم البائس ومتكلف البؤس ، وحتى لا يتخذ التسول صناعة وحرفة ، وحتى لا يتخذ البر وسيلة الى طمع الناس فيما ليس في ايديهم من يسر الموسرين ، واما لهذه العلل كلها مجتمعة ولعلل اخرى كثيرة يمكن ان تضاف اليها وليس في احصائها نفع لأحد . ولكن الشيء

الذي ليس فيه شك هو ان هذا الموظف من موظفي الدولة عاجزعن ان يجد في مرتبه الضئيل ما يرضي ايسر ما تحتاج اليه اسرته لتعيش ؛ فهو يستدين من جهة حتى لا يجد الى الاستدانة سبيلا . وهو يلتمس الاحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الاحسان ؛ فليس امامه الا ان يقترف الاثم ليعيش ويتيح لأسرته ان تعيش . وقد يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الاثم ، وقد تكون الحاجة الى الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه ، فيقترف الاثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ؛ فهو ان فعل تعرض للعقوبة ، وتعرضت اسرته لبؤس تضاعفه الظروف اضعافاً . واذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ، ولا يكسو العاري ، ولا يسكت الصبي الذي يصيح ملتمساً طعامه حين يعضه الجوع ، ولا يداوي المريض ولا يغني عن الذين انتهوا الى الدرك الاسفل من الحرمان شيئاً .

والشيء الذي ليس فيه شك ، ان هذا الموظف ليس وحيداً في بؤسه هذا المنكر ، وفي عبئه هذا الثقيل ، وانما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وانما يحصون بالالوف واخشى ان يحصوا بعشرات الالوف . وليس من الممكن ان تحل مشكلات هؤلاء الناس بالاستدانة والعجز عن اداء الدين أو الالتواء بالدين . وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والاحسان ؛ فان التصدق والاحسان قد يعينان على تفريج ازمة عارضة ، وعلى اطعام العيال يوماً او اياماً ، وعلى كسوة العيال في فصل من الفصول ، ولكنهما لن يستطيعا ان يكفلا لهؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع .

وانا لم اذكر الى الآن حق هؤلاء الصبية في ان يتعلموا ، وفي ان يستمتعوا بصحة لا تجعلهم عرضة للادواء المهلكة والامراض المعدية ، ولا تجعلهم مصدر خطر على من يتصل بهم من الناس .

هذه مشكلة لو كانت طارئة لظننت ان الحديث عنها قد يلفت اليها ويدعو الى التفكير فيها والاجتهاد في حلها ، ولكنها لم تطرأ اليوم ولم تطرأ امس ، وانما عهدها بنا بعيد ، واهمالنا لها متصل ، وهي من اجل ذلك تنتج نتائجها المنكرة المخزية . فانتشار الوباء في غير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقي وانتشار الرشوة ، وانتشار السرقة ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة في الضمائر والقلوب ، وانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشار الاذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد والاستخفاف بالحرية والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الانسان انساناً فضلاً عن الازدراء لكل ما يجعل الانسان انساناً متحضراً ممتازاً - كل هذه الآفات والمخازي ليس لها مصدر الا هذا الشقاء .

ولأعد الى هذا الموظف من موظفي الدولة ؛ إنه كغيره من الموظفين : يغدو الى مكتبه مع الصباح ويروح الى داره مع المساء ، قد اتخذ ثياباً تلائم عمله ، ولو بليت ثيابه فلم يجد ما يشتري به ثيابا اخرى لعوقب على ذلك ؛ فالدولة حريصة على أن يكون موظفوها كراماً في مظاهرهم على أقل تقدير . هو اذن يغدو ويروح في ثيابه تلك الملائمة ، وعلى رأسه طربوشه ، وفي رجليه حذاؤه الذي لا ينبغي أن يبلى ، وهو يستقبل أصحاب الحاجات من الشعب ، يبسم لهم أو يعبس في وجوههم ، يخدمهم ناصحا او يخدمهم متكرها ، وهو يتحدث الى زملائه فيبادلهم الدعابة حينا ويبادلهم الشكوى احيانا ، وهو على كل حال قبر متحرك ، يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت ، قد اماته البؤس والشقاء والهم ، واكثر زملائه يشبهونه . فاعجب لدولة يخدمها موظفون تحيا اجسامهم وتموت نفوسهم ، وانتظر بعد ذلك من هذه الدولة ان تسلك بالشعب طريقه الى العزة والكرامة والاستقلال الناقص أو التام . والمهم هو اننا عشنا حتى

رأينا موظفي الدولة يطلبون الصدقة ويلتمسون الاحسان : يطلبون ذلك بألسنتهم ويطلبون ذلك بأقلامهم جاهدوا ما وسعهم الجهاد حتى ارغمتهم الحاجة على أن يتخففوا من هذه الكرامة التي منحها الله للانسان ، والتي تمنع الانسان من أن يسأل ويلتمس الاحسان !

موظفو الدولة اذن يطلبون الصدقة ويلتمسون الاحسان . واغرب ما في الأمر أن عامة الشعب يحسدون الموظفين على مرتباتهم هذه المقررة المنظمة التي تصرف لهم في اول الشهر لا تتخلف عنهم ولا تبطىء عليهم . واذا كانت هذه حال المحسودين فكيف تكون حال الحاسدين ؟ ! اظن انك قد رأيت الخطر الذي يسعى الينا مسرعاً ، او الذي نسعى اليه مسرعين . واظنك توافقني على اننا بين اثنتين : اما ان نترك الامور تجري على سجيتها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويجري علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، وإما ان نستقبل من امرنا ما استدبرنا ، وان نحاول الاصلاح لنعصم موظفي الدولة من طلب الصدقة والتماس الاحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الاحسان . وليس الى ذلك الا سبيل واحدة ، هي ان نعيد النظر في نظامنا الاجتماعي كله ، فيما تجبي الدولة من الضرائب ، وفيما تمنح الدولة من المرتبات .

الضرائب قليلة جداً ، أقل مما ينبغي ، والمرتبات قليلة جداً ، أقل مما ينبغي . والعدل يقتضي ان تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وان تكف الدولة عن الاسراف في الاموال العامة ، وان يكف الاغنياء عن الاسراف في اموالهم الخاصة . وليس الى الاصلاح الاجتماعي من سبيل الا اذا وجدت الاداة السياسية الصالحة التي تستطيع ان تنهض بعبئه وتنقذه من مشكلاته . فهل ترى أن مصر تملك في هذه الايام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الاصلاح ؟ هذا سؤال لست في حاجة إلى أن أجيب عليه !

## ٨

# تضامن

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله ، يقدر حين صدر بالمسلمين من الحج سنة ثماني عشرة للهجرة ، انه يستقبل بالمسلمين من اهل بلاد العرب ، ومن أهل الحجاز ونجد وتهامة خاصة ، عاماً اسود قاتما يمتحن المسلمون به في أنفسهم واموالهم واخلاقهم ، وفيما اتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للكروه والنفوذ من الخطوب ، وفيما اتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذي يجعل الانسان انساناً ويرقى به الى المنزلة العليا من منازل الكرامة ، وهو شعور التعاطف والتآلف ، والتضامن الاجتماعي الذي يلقي في روع كل فرد منها تكمن منزلته ، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها ، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء ، وما ينوبها من السراء والضراء .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر ان الغيب قد اضمر له وللمسلمين من اهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية ، يمحص بها قلوبهم ، ويصفي بها نفوسهم ، ويعلمهم بها ان الحياة ليست نعيما متصلا ، ولارضاء مقيما ، ولا خصباً يتجدد كلما تجددت الفصول ، وانما هي مزاج من النعيم والبؤس ، ومن اللذة والالم ، ومن السعادة والشقاء ، وان سبيل المؤمن الذي مس الايمان قلبه حقاً ، هو ألا يطغى إذا استغنى ، ولا يبطر إذا نعم ، ولا ييأس إذا امتحن بالبؤس والشقاء ، وألا يؤثر نفسه بالخير إن اتيح له الخير من دون الناس

وألا يترك نظراءه نهباً للنوازل حين تنزل ، وللخطوب حين تلم ، وانما يعطي الناس مما عنده حتى يشاركوه في نعمائه ، ويأخذ من الناس بعض ماعندهم حتى يشاركهم في بأسائهم . فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق . والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة . والله لم يجر الانهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظمأ اليها جماعات اخرى . والله كذلك لم يخرج النبات من الارض ، ليشبع منه قوم ويجوع آخرون .

وانما اسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعاً ، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع ، ولكن لا ينبغي ان يفرض الحرمان على احد منهم ، مهما يكن شخصه ، ومهما تكن طبقته ، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم في ذلك العام ان الله سيرسل الى المسلمين عاماً جديداً يمتحنهم فيه بالجوع والظمأ والعرى امتحانا لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد . وكيف كان عمر يستطيع ان يقدر ذلك وامور الدولة الناشئة تجري على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعد الصيت ، وانتشار الفتح وكثرة الفيء وغزارة الرخاء ؟ ولكن العام الجديد يقبل ، وإذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الارض ظمأ إلى هذا الماء ، وحتى تسود كأنها الرماد ، وحتى يضطر المسلمون إلى أن يسموا هذا العام عام الرمادة . بخلت السماء بالماء ، وجادت الشمس بالحر ، وعجزت الارض عن أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ماكانوا يسومون من الثاغية والراغية . وينظر عمر بعد ان استقر في المدينة ، فإذا الازمة تسعى متمهلة مستأنية ، ولكنها مستوثقة من نفسها ملحة في سعيها ، وإذا اهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم

الجدب ، فلم يفكروا إلا في أن يهرعوا إلى خليفتهم يلتمسون عنده ما يطعمهم من جوع ، ويسقيهم من ظمأ ، ويكسوهم من عرى . وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم واخوانهم وكاسبيهم وعائليهم ، فرمى بهم تلك الثغور ، ودفع بهم الى حروب يعرفون اولها ولا يعرفون آخرها ! ومالهم لايهرعون اليه وهم كانوا يشعرون بحبه لهم ، وعطفه عليهم ، وبره بهم ، يسعى الى أقصاهم كما يسعى الى أدناهم ، لا يقصر عن السعي اليهم ساعة من ليل او ساعة من نهار . ثم ينظر عمر فإذا جزيرة العرب كلها ترسل اليه من بقي فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرون على شيء ، والقادرين الذين لا يجدون شيئاً يقدرون عليه ... هنالك ينهض عمر للقاء هذه الازمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذي يعرف الحق كما لم يعرفه احد بعده ، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده ، ويواجه الخطب مصمما على أن ينفذ منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذاك كنزاً من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يدركه الفناء : يجد المسلمون فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة ، مما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رفق ولين ، إلا أن يكون من تلك القلوب التي وصفها الله عز وجل ، بأنها قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه في مقاومة هذا الخطب ، فأبى إلا أن يكون رجلا من المسلمين : يشقى كما يشقون ، ويجوع كما يجوعون ، ويظمأ كما يظمأون ، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقراً وبؤسا . يفعل ذلك لأنه مؤمن قبل كل شيء بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك ، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه ان يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف ، حين

تنزل المحن وتلم الخطوب ، فيأبى إلا أن يعيش كما يعيش أفقر الناس !

رأى المسلمين لا يجدون السمن الا في مشقة وجهد ، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الحاف . فلما ثقل عليه الزيت ظن انه إن طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا ، فأمر أن يطبخ له الزيت ، واكله مطبوخاً فكان أوجع له وأعسر هضما ، حتى تغير لونه واسود وجهه وكان شديد البياض . ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم الى هذه الموائد ، يأكل مما يأكلون منه . ثم أمر المنادين أن ينادوا في الناس : من شاء أن يقبل على هذه الموائد فيأكل منها فليفعل ، ومن شاء ان يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة أهله ليأكل معهم فليفعل ؛ وكان يشرف بنفسه على إعداد الطعام ، وربما علم الطباخين كيف يطبخون . ولكن الأزمة تشتد وتشتد ، وأهل البادية يهرعون الى المدينة ، وكثير منهم لا يستطيعون ان ينتقلوا من أماكنهم ، قد هلك الزرع وجف الضرع ونفقت الماشية ، وأصبح من الحق على الخليفة أن يدرك هؤلاء الناس في مواطنهم ، ويحمل اليهم أرزاقهم ما داموا عاجزين عن السعي الى هذه الأرزاق ؛ هنالك يكتب عمر الى عماله في الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا اليه الامداد . واقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذي كتبه عمر الى عامله على مصر عمرو بن العاص رحمه الله ، وانظر الى ما في هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف ملؤه الرحمة الرحيمة ، والرفق الذي ليس بعده رفق : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي . سلام عليك . اما بعد أفترائي هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ؟ فيا غوثاه يا غوثاه . . . يا غوثاه ! »

فلم يكد عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذي يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر ، حتى كتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . اما بعد أتاك الغوث فلبث لبث ! لأبعثن اليك بعيراً أولها عندك وآخرها عندي . . »

ثم نهض عمرو في ارسال هذا الغوث براً وبحراً . وكتب عمر الى عماله الآخرين في الشام والعراق ، فكلهم صنع صنيع عامل مصر ، ثم ارسل عمر رسله إلى حدود بلاد العرب مما يلي الشام والعراق ومصر ، وأمرهم أن يتلقوا هذه المعونات ، فيميلوا بها إلى أهل البادية في أماكنهم وأحيائهم ليطعموهم ، ويكسوهم ، ويسقوهم ، وعزم على رسله هؤلاء ألا يضعفوا ولا يلينوا ولا يفرقوا ما في أيديهم من الطعام دون أن يتبينوا أنه صائر إلى بطون الجائعين ، لا إلى خزائن المختزنين . وأشد من هذا روعة وأعظم من هذا إثارة للعبرة ، أن عمر رحمه الله كان يقول : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد عدتهم ممن لا يجد إلى أن يأتي الله بالحيا . »

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه ، وأزمع أن يرزق الناس منه ؛ حتى إذا لم يجد فيه شيئاً كلف كل اسرة غنية أن تطعم مثل عددها من الفقراء ، يأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين ، حتى يأتي الله بالفرج .

وما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ فلسنا في وقت ترفيه ولا إطراف ولا ترويح ، وانما نحن نحيا في ايام سود ، ليست

أقل نكراً ، ولعلها أن تكون أشد نكراً من عام الرمادة ذاك .

فقد كان المسلمون في أيام عمر ، وفي ذلك العام ، يجدون الجوع والظمأ والعرى. فأما المصريون في هذا العام فانهم يجدون الموت ويجدون المرض ، ويجدون بعد الموت والمرض ما كان يجد العرب في عام الرمادة من الجوع والظمأ والعرى . ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء أن يدفع عنهم هذا الوباء ، وأن ترد عنهم آثاره ؛ فلا يكون منهم من يشكو الجوع والظمأ والعرى وهذا الحق واجب على الدولة ما وجدت في خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك ، لا ينبغي أن تفكر في شيء حتى تفرغ من هذه المحنة ؛ فان لم تسعفها خزائنها فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التي أراد عمر أن يسلكها ، وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتي الله بالفرج .

يجب أن تعلم الدولة ويجب أن يعلم الموسرون أن التصدق بالمال خير في أوقات الرخاء والدعة واللين ؛ فاذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء ، فالتصدق واجب يفرضه العدل، فان لم ينهض به الافراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذاً . يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين في أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الاغنياء ويردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع أو محروم . فاذا جد الجد وألمت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وان يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسي العارون من المعسرين . وعلى الدولة ان تقوم على هذا كله بسلطان القانون ؛ فان لم تفعل فهي آثمة اشنع الاثم في ذات الله ، وفي ذات الوطن ، وفي ذات المواطنين !

هـــذه دروس القاها عمر بن الخطاب على الحاكمين والمحكومين في التضامن الاجتماعي الذي لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية ، وانما يقوم على قول الله عز وجل: « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون . »

فهل نطمع في ان تسمع الدولة وفي ان يسمع الموسرون ؟ وهل نطمع في ان تتذكر الدولة ويتذكر الموسرون ؟ وهل نطمع في ان نعفى وتعفى الكرامة الانسانية من طلب الصدقات في الصحف إلى قوم يؤثرون الاموال على الوطن وعلى المواطنين ؟

ان من الحق على الدولة ان تعلم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون ، إذا لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس . . .

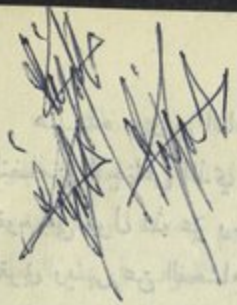

٩

# ثقل الغنى

كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء في جاهليته ، وقد اسرع الى الاسلام حين ظهرت الدعوة اليه فيمن اسرع اليه من السابقين الاولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الاغنياء المترفون من قريش ما كان الاسلام يدعو اليه من التسوية بين الاغنياء والفقراء وبين الاقوياء والضعفاء وبين الاحرار والعبيد ، وإنما شرح الله صدره للاسلام ، فأقبل عليه مشغوفاً به مضحياً في سبيله بما جمع من مال وما ضخم من ثروة وما اكتسب من سؤدد ، مستعداً لمشاركة اصحابه في التعرض للأذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من اصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء في ان يفر بدينه الى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركاً وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوماً من اهله وذوي قرابته كان يحبهم أشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفوما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا ، ثم هاجر الى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للاسلام داراً ، فانتهى اليها وهو لا يملك إلا قلبه الذكي وضميره النقي وانفه الحمي وايمانه الذي ملأ نفسه ثقة ويقينا . وقد آخى النبي صلى الله علية وسلم بينه وبين رجل من اغنياء الانصار هو سعد بن الربيع الخزرجي رحمه الله ، فقال له

سعد : انظر الى مالي فخذ نصفه ، ولي زوجتان اطلق لك ايتهما اعجب اليك فتخذها لنفسك زوجا ! قال عبد الرحمن : بارك الله لك ، ولكن إذا أصبحت فدلوني على سوقكم . فلما اصبح ذهب الى السوق فأنفق فيها وجه النهار ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب ما يقيم به الأود ثم اقبل بعد حين على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس الجديد واتخذ من الزينة ما كان يباح للمسلمين في ذلك الوقت . فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك انبأه بأنه قد اتخذ لنفسه زوجاً من نساء المدينة ، وبأنه قد امهر زوجه وزن نواة من ذهب فأمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يولم لأصحابه ، ففعل .

ولم تمض اعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من اغنياء المدينة قد اكتسب ثروة مكان ثروة ، وكثر مالاً مكان مال ، واستطاع ان يتزوج فيمهر امرأته ثلاثين الفا . وكان يقول : لقد رأيتني وما ارفع حجراً إلا ظننت اني سأجد تحته ذهباً أو فضة !

كان عبد الرحمن إذن من كبار الاغنياء قبل ان تفتح مكة ، فلما تم فتح مكة ضم الى ثرائه الجديد ثراءه التليد ، ثم استثمر هذا كله كأحسن ما يستثمر المال ، وكأحسن ما كانت قريش تستثمر المال ، حتى اصبح ذات يوم وإنه لمن اغنياء العرب كافة ، ولعله ان يكون اغناهم كافة لا يستثنى منهم الا عثمان بن عفان رحمه الله . وربما كان من الممكن ان يقال ان عبد الرحمن بن عوف كان اغنى من بيت مال المسلمين ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيت المال في ذلك الوقت يدخر شيئاً ، ولم تكن تجبى اليه الضرائب ؛ ولم يكن يحمل اليه في ء ذو خطر ، وإنما كانت تصاب الغنائم اليسيرة في الغزوات فتقسم بين الغزاة ويحفظ

خمسها للمرافق العامة ولوجوه الاحسان والبر . وكانت الصدقات تؤخذ من الاغنياء فتقسم بين الفقراء ولا يصل منها الى المدينة إلا اقلها ؛ فاذا وصل حبس على المصارف التي بينها الله في القرآن الكريم . فكان بيت المال فقيراً . وليس ادل على فقر بيت المال من إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم على الاغنياء من الناس في ان يعينوه على بعض غزواته بأموالهم : يخرجون له عن بعض فضولها او ينزلون له عن بعض اصولها .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكره شيئاً كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى اصحابه من شيء كما كان يشفق على نفسه وعلى اصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء . فنظر ذات يوم الى عبد الرحمن وقال له : يا ابن عوف ، إنك من الاغنياء ، ولن تدخل الجنة الا زحفاً ، فأقرض الله يطلق لك قدميك . » قال عبد الرحمن بن عوف : « وما الذي اقرض الله يارسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما أمسيت فيه . » قال : « أبكله أجمع يا رسول الله ؟ » قال : « نعم ! » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ؛ فأرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول فإنه اذا فعل ذلك كان تزكية ماهو فيه » .

واحب قبل كل شيء أن يقف القارىء معي عندما في هذا الحديث من سذاجة رائعة أو روعة ساذجة في لفظه وفي معناه وفي قصته كلها ، فرسول الله يشفق على عبد الرحمن من غناه الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة ثقيلة باهظة يحملها صاحبها على كاهله فتمنعه من السعي وتعسر عليه الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع أن يمشي الى الجنة مع الساعين أو يعدو اليها مع العادين . وهو لا يشير عليه

بأن يتخفف من هـذا الثقل يلقيه عن كاهله القاء ، وانما يشير عليه بأن يثمر هذا المال ولا يضيعه ، وذلك بأن يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يضيع عليه ماله وانما يرد عليه يوم القيامة أضعافاً مضاعفة .

وعبد الرحمن يسأل عما ينبغي أن يقرض الله من ماله ، فيقال له : ابدأ بما أمسيت فيه ، أي تصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلت المساء ، واعلم أنك حين تفعل ذلك لا تزيد على ان تبتدىء ، وانك ستمتحن فيما سيجتمع لك من المال في مستقبل ايامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال في أيامك الماضية .

وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي : ابكل ما اجتمع لي من المال ؟ فيجيبه النبي : نعم ! وينهض عبد الرحمن مصمما على ان يمضي امر الله ورسوله في هذا المال الذي يحبه والذي انفق في جمعه وتثميره ما انفق من الجهد والوقت ، واحتمل في تثميره ما احتمل من المشقة والعناء . ولا بأس عليه من ان يحب المال ، وانما البأس كل البأس والجناح كل الجناح ان يمنعه حب المال من ان ينفقه ليبر به اليتامى والمساكين وذوي القربى وابناء السبيل . اليس الله قد بين البر للمسلمين بانه ليس التوجه الى المشرق او المغرب وانما هو الايمان بالله وايتاء المال على حبه للذين يحتاجون اليه .

ينهض عبد الرحمن اذن مصمما على ان يمضي في ماله امر الله ورسوله ، ولكن النبي يرسل اليه ان الله ورسوله يرفقان به بعد ان امتحناه ومحصاه ، فيأمرانه بأن يضيف الضيف ويطعم المسكين ويعطي السائل ويبدأ بأهله وعياله ، فان فعل فقد زكى نفسه تزكية ، وطهر ماله تطهيراً .

حزم في الامتحان حتى تستبين العزيمة الصادقة الماضية على الاذعان مهما يكن شاقاً ، وعلى التضحية مهما تكن عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن

ثقيلا ، فاذا استبانت العزيمة الجازمة وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضعان عنهم بعض ما يحتملون من الثقل .

وقد اختار الله نبيه لجواره ، وانقطع خبر السماء ، وحرم المسلمون هذا الوحي الذي كان يصابحهم ويماسيهم ، واصبح الناس ذات يوم واذا رجة عنيفة تتجاوب اصداؤها ارجاء المدينة كلها . وتسأل عائشة أم المؤمنين رحمها الله عن هذه الرجة ، فيقال لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت . فتقول عائشة : اما اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم اخرى حتى يفلت ولم يكد ! »

ويبلغ حديث عائشة عبد الرحمن ، وكانت هذه العير خمسمائه راحلة تحمل نفائس العروض من الشام . فاذا سمع هذا الحديث قال : هي وما تحمله صدقة ! لم يكتف ببعض ما كانت تحمل ، ولم يكتف بكل ما كانت تحمل ، ولم يكتف بها دون ما كانت تحمل ، وانما تصدق بها وبأحمالها . ولو قد امتدت الحياة برسول الله واتصل نزول الوحي وتنزلت أخبار السماء الى الارض ، لكان من الممكن أن يقبل النبي من عبدالرحمن التصدق ببعض تجارته والابقاء على بعضها الآخر . ولكن عائشة لم تزد على ان روت ما سمعت من رسول الله . واشفق عبد الرحمن من ان يميل به الصراط مرة ويستقيم به اخرى حتى يبلغ الجنة بعد جهد ، وحرص عبد الرحمن على ان يستقيم له الصراط فلا يكون فيه ميل ولا اضطراب حتى يبلغ الجنة في غير تعثر ولا جهد ولا عناء .

وكان عبد الرحمن رحمه الله من اكثر المسلمين تصدقاً ، ومن اسخاهم بماله ، ومن اوصلهم للرحم ، ومن ابرهم بالناس ، انفق حياته كلها مستثمراً

لمـــاله متصدقاً بـه ، وكان تصدقه لاينقص من ماله وانما يزيـــد فيه ويضاعفه اضعافاً واضعافاً كأنما قضى الله الايجزيه عن صداقته في الآخرة وحدها ، والا يضاعف له قرضه في الجنة وحدها ، وانما يكفل له ثواب الدنيا والاخرة جميعاً .

هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التي نعيش فيها تجعله جديداً كل الجدة . وأنا اسوقه الى الذين اتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما اتيح لعبد الرحمن او اكثر مما اتيح لعبد الرحمن ، واحب ان يستقر في قلوبهم أن الثراء ان ثقل على عبدالرحمن مع انه كان من السابقين الاولين ، ومع انه جاهد بنفسه وماله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه لم ينفق يوماً من ايامه الا تصدق فيه بالكثير - احب ان يستقر في قلوبهم ان الثراء ان ثقل على عبد الرحمن مع أن النبي قد ضمن له الجنة في نفر من السابقين الاولين ، فهو عليهم اثقل ، لأنهم لم يسبقوا الى الاسلام ، ولم يجاهدوا بأنفسهم واموالهم في سبيل الله ، ولم يضمن النبي لهم شيئاً الا انهم ان احسنوا طاعة الله في أنفسهم واموالهم لم يضع عليهم مما قدموا شيئاً . واذا خاف النبي على عبد الرحمن الا يبلغ الجنة الا زحفاً ، والا يعبر الصراط الا بعد جهد ، فنحن أجدر ان نخاف على أغنيائنـــا الا يبلغوا الجنة زاحفين ، والا يعبروا الصراط جاهدين او غير جاهدين .

فلينظر اغنياؤنا الى ماحولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت وليفكروا في ان اموالهم عارية مردودة ، وفي أن الذين يقرضون الله قرضاً حسناً يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفي ان الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله قد بشروا بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون !

## ١٠

### سخاء

لست أدري اتصح هذه الاخبار كما احب وكما اعتقـــد، أم لا تصح كما يجب المتشككون و كما يعتقدون. وهي سواء صحت او لم تصح تثير في نفسي كثيراً من الخواطر ، وتثـــير في قلبي كثيراً من العواطف ، وتدفعني الى كثير من التفكير ، كما تدفعني الى كثير من الاحلام الحسان العذاب ، التي إن صـدقت كانت احسن المنى ، وان لم تصدق كانت قد اتاحت لي ان أعيش ساعات حلوة كما يريـــد الشاعر القديم ان يقول .

وهذه الاخبار هي التي تتصل بكرم الكرماء ، وجود الاجواد ، وتبرم الاغنياء بما يتاح لهم من الغنى ومايساق اليهم من الثراء. والحمد لله الذي لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على المـــال ، بخلاء بما يملكون ، لا ينالون من الغنى حظاً الا ليبتغوا حظا اوفر مما نالوا ، ولا يحرزون من الثراء نصيبا الا ليطلبـوا اكثر مما ادركوا . ثم هم على كثرة ما يملكون و كثرة ما يحصلون و كثرة مايتراكم عندهم من الغنى ، اشبه شيء بالصخرة المصمتة ، ذات القاع البعيد او التي ليس لها قاع ، فهي

لا تجود بشيء مما يستقر فيها من المـــاء مهما يكثر ومهما يركب بعضه بعضاً ،وانما هي مصمتة من جميع جوانبها ، ليس فيها أمل لمن يطيف بها الا ان يحطمها تحطيما .

الحمد لله الذي لم يخلق الناس جميعا حراصاً على هذا النحو من الحرص، يخلاء الى هذا الحد من البخل ، وانما جعل منهم بين حين وحين من لا يكره الغنى ،ولكنه على ذلك لايغنى فيه ولا يتهالك عليه ولايتخذه غاية، وانما يتخذه وسيلة ينفع بها نفسه وينفع بها أهله ،وينفع بها ذوي قرابته وذوي مودته ،وينفع بها اكثر عدد ممكن من الناس ، حين يتاح له ان ينفع اكثر عدد ممكن من الناس .

هؤلاء الاجواد الاسخياء عزاء عن الحراص البخلاء ،يلقون في روعك ان الانسانية ليست شراكلها ، وان حياة الناس قد تكون صحراء مقفرة مجدبة شديدة العقم ، ولكنها على ذلك لاتخلو من الواحة التى تقوم فيها بين حين وحين ،فتتيح للمسافر الذي عناه السفر واضناه الجهد ، ان يجد فيها من الظل والماء ،ومن الراحة والروح ، ماينسيه بعض ما احتمل من المشقة ، ويعينه على احتمال ما سيلقاه من الجهد حـــين يستأنف السعي في صحرائه تلك المجدبة المقفرة . ولولا هؤلاء الاجواد الاسخياء لكانت الانسانية خليقة ان نبغضها أشد البغض واعظمه بشاعة ونكرا.

والناس يلتمسون الراحة حيث يجدونها وكما يستطيعون ان يجدوها وهم لذلك يلتمسون العزاء حيث يجدونه وكما يستطيعون ان يجدوه : يلتمسونه من حولهم ، فاذا لم يظفروا به أبعدوا في السعي والتمسوه في الاطراف النائية والاماكن المتباعدة ، فـــاذا اعياهم ان يظفروا به في المعاصرين ، من قرب منهم ومن بعد ، التمسوه فيما مضى من الايام وفيما

سلف من العصور. وقد يظن القارىء اني أتكثر أو أتزيد، ولكني اؤكد له أني لست من التكثر والتزيد في شيء، وانما استقبلت هذه الأحداث التي تحدث، والنوائب التي تنوب، وهـــذا البؤس الذي يأخذ كثرة المصريين من جميع اقطارهم، ويسعى اليهم من كل وجه، يعدهم للموت حتى يسلم بعضهم اليه، ثم يستأثر بمن بقي منهم فيمضي في اعدادهم للموت، متمهلا حيناً ومتعجلا حينا، وجعلت أنظر فيمن حولي من الأغنياء، وأنظر في موقفهم من هذا الشقاء المِلم، والبلاء المدلهم، والهول الهائل، والعذاب الشديد، فلم أر إلا حرصاً وبخلا، وقسوة في القلوب، وغلظاً في الأكباد، وجفوة في الطباع، وكدراً في الضمائر، ووجدت قوماً ينفقون على كره للانفاق، وقوماً آخرين يترددون بين الكرم والبخل ثم يؤثرون البخل بعد طول التردد واتصال التفكير، وقوماً آخرين لا ينفقون ولا يترددون ولا يفكرون، وانما يجهلون من حولهم من الناس، ويجهلون ماحولهم من البؤس والضنك والضيق والموت، يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا، ويجعلون على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا، ويجعلون على قلوبهم أكنة وأقفالا حتى لا يصل اليهم ما يثير فيها شيئاً من تضامن أو تعاطف أو رحمة أو إشفاق.

أولئك وهؤلاء يقبلون على لذاتهم ومنافعهم وآمالهم كما يتصورونها، لا يعنيهم أن يلذوا والناس من حولهم يألمون، ولا يسوءهم أن ينعموا والناس من حولهم يتجرعون الشقاء والبؤس والعذاب غصصا؛ فهم يرقصون على جثث المواطنين، ويسعدون بشقائهم، ولا يفرقون بين هذه الموسيقى البشعة المنكرة التي تأتي من شكاة الشاكين وبكاء الباكين وأنين المرضى وحشرجة المحتضرين، وهذه الموسيقى الأخرى التي تصل

اليهم من عزف العازفين ونفخ النافخين ورقص الراقصين ، ولا يجدون بأساً حين يقبلون على كؤوسهم المترعة المصفاة ، أن يكون مزاجها من هذه الدموع الغزار التي لا ترى ولا تحس لأنها لا تنزف من أعين الناس وإنما تنزف من أعين مصر كلها . ودموع الناس قد ترى وقد تحس فيضيق بها الذين يرونها والذين يحسونها ، ولكن دموع الأوطان والشعوب والأجيال لا يراها ولا يحسها إلا الذين اتيح لهم شيء من رقة القلوب وصفاء النفوس ونقاء الضمائر وتهذيب الطباع ، وهؤلاء مع الأسف قليلون ، بل هم أقل من القليل .

استقبلت هذا كله ونظرت فيمن حولي من الناس ، لأرى كيف يرفق بعضهم لبعض ، وكيف يعطف بعضهم على بعض ، وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين ، فلم أر شيئاً ذا خطر ، وانما رأيت كرماً قليلا وكلاماً كثيراً ، واستباقاً الى التفاخر الكاذب ، وتهالكاً مع ذلك على اللذة الباطلة والنعيم السخيف . وما أعلم أن أغنياءنا ، على كثرة ما يملكون ، وعلى كثرة ما يغل عليهم ما يملكون ، قد استطاعوا أن يجمعوا لمعونة المنكوبين بوباء الكوليرا مئة الف من الجنيهات ، وأحسبهم ما زالوا بعيدين عن هذا المقدار أشد البعد ، وما أرى أنهم سيبلغونه أو يقربون منه . وهم قد أخذوا ينسون الوباء ، بعد أن أمنوا على أنفسهم — إن جاز للناس أن يأمنوا على أنفسهم — وبعد أن زعمت لهم وزارة الصحة أن الوباء قد أوشك أن يزول . لم يقل أحد لنفسه — ولا يرجى أن يقول أحد منهم لنفسه — أن الوباء قد اختطف من اسر كثيرة رجالا كانوا يعولونها ، واضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى تصوره فضلا عن وصفه ، وإن من حق هذه الاسرة أن تعيش أولا ، وأن تجد

من عطف المواطنين عليها بعض العزاء عما ألم بها من الخطب ثانيا ، وأن تشعر بأنها اسر كريمة في وطن كريم ثالثا .

لم يخطر لأحد منهم – و لا يرجى أن يخطر لأحد منهم – شيء من ذلك . لأنهم مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال إلى المال ، وضم الثراء الى الثراء ، وباللذات التي لايفرغون من بعضها إلا ليقبلوا على بعضها الآخر ، ولا يستريحون منها إلا ليستأنفوا العكوف عليها والامعان فيها . ثم لم يخطر لأحد منهم – وليس يرجى أن يخطر لأحد منهم – أن بؤس البائسين وإعدام المعدمين لا يجر الخزي عليهم بمقدار ما يجر الخزي على وطنهم كله وعلى الذين أتاحت لهم الظروف أن يكونوا عنواناً لهذا الوطن. يلقون الأجنبي حين يفد على مصر ، ويسعون إلى الأجنبي إذا لم يفد على مصر ويسمعون منه – راضين أو كارهين – حديث الوباء والمنكوبين ، فلا يستحيون لأنفسهم ، ولا يستحيون لوطنهم ، ولا يستحيون لهذا الجيل من المصريين أن يوصم في أعين الأجنبي بالاثرة المنكرة التي تغض من صاحبها وتجعله خليقاً أن يزدرى ويحتقر ، ولا يكرمه من يكرمه إلا بمقدار ما يتخذه وسيلة إلى تحقيق منافعه وقضاء آرابه .

أي بأس علي إذا رأيت هذا كله وضقت بهذا كله ، فوجدتني بين اثنتين : إما أن أبغض الحياة والأحياء ، وأنكر الوطن والمواطنين ، وإما أن التمس العزاء حيث أستطيع أن التمسه ، وكما أستطيع أن التمسه ، لعل الغمرة أن تنجلي ، ولعلي أستطيع – بعد وقت قصير أو طويل – أن أعود إلى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ، ومن أغنيائهم خاصة ، فأقول لهم ، وأسمع منهم دون أن أجد في نفسي هذا الألم الممض ، وهذا الاشمئزاز البغيض .

إلى التاريخ إذن وإلى أحاديث القدماء ؛ فقد ملأ المعاصرون قلوبنا يأساً ونفوسنا قنوطا . لنهجرهم، ولنهاجر في الزمان إذا لم تتح لنا الهجرة في المكان ، ولننظر في أخبار تلك العصور القديمة ، سواء صحت أم لم تصح ؛ فهي إن صحت كانت لنا عزاء ، وهي إن لم تصح أتاحت لنا أن نحلم بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبداً للمال ولا مرقوقا للثروة ، وإنما يكون المال فيه عبداً لمالكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وانقاذ المحروم ، ثم إلى إثارة هذه العاطفة الحلوة التي يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوباً وأغاث ملهوفاً وأنقذ محروماً وبر صديقاً وتصرف في ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه.

إلى التاريخ إذن لننسى العصر الذي نعيش فيه، وإلى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين .

وتستطيع أن تصدقني أو لا تصدقني ، فما يعنيني من ذلك شيء ، ولكنك تستطيع أن تقرأ – على كل حال – أني وقفت وقفات طويلة ، طويلة جداً عند بعض هذه الأحاديث التي تروى لنا عن القدماء من اصحاب الجود والسخاء . عند هذه القصة التي تروى عن عثمان – رحمه الله – حين أجدب أهل المدينة أيام أبي بكر حتى ارتفعت الأسعار ، ولم يجد الفقراء وأوساط الناس ما يأكلون ، وأقبلت في أثناء ذلك عير لعثمان تحمل من الشام خيراً كثيراً ؛ فأسرع التجار اليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته ليبسروا بها على الناس، وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنه أبى أن يبيع إلا ان استطاعوا أن يدفعوا اليه عشرة أمثال أثمانها ؛ فلما أظهروا العجز أنبأهم بأن الله قد وعده عشرة أمثالها ان تصدق بها ، ثم أعلن اليهم أنه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ،

ويؤثر ثواب الله على أموالهم ، وان بضاعته هذه صدقة للمسلمين !

نعم ! ووقفت وقفات طويلة ، طويلة جداً ، وعند رجل آخر من أصحاب النبي هو طلحة بن عبد الله رحمه الله وقد دخلت عليه امرأته فرأته صامتاً حزينا ، فلما سألته عن ذلك رفيقة به عطوفاً عليه ، أنبأها ان قد جاءه مال كثير ، فهو مهتم له لا يدري ما يصنع به ، فلم تزد امرأته على ان قالت له مبتسمة : اقسمه ! قال نعم ، ثم قسم هذا المال بين ذوي قرابته وذوي مودته وذوي الحاجة من المسلمين ، واستقبل بعد ذلك ليله سعيداً ، وكان هذا المال اربعمائة الف درهم !

نعم ! وأقف وقفات طويلة ، طويلة جداً عند طلحة نفسه حين باع أرضاً له وأدى اليه ثمنها سبعمائة الف درهم ، فلما حصل المال في داره ، فكر غير طويل ثم قال : ان رجلا يمسي وعنده هذا المال لا يدري ما ادخر له القضاء من أمر الله لمغرور ، ثم أمر فقسم هذا المال على ذوي قرابته وذوي مودته وذوي الحاجة من المسلمين ، ولم ينم حتى أنفقه عن آخره .

والغريب ان هذا الانفاق على كثرته وعلى اتصاله لم ينته بطلحة الى الفقر أو الى شيء يشبه الفقر ، لأن الله قد وعد الأغنياء إذا أنفقوا في سبيل البر مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقا ، ان يخلف عليهم ما أنفقوا . وقد قتل يوم الجمل وتعرضت ثروته بعد موته لخطوب كثيرة ، ولكن ورثته على رغم ذلك اقتسموا فيما بينهم ثلاثين مليونا من الدراهم !

فليت أغنياءنا يفكرون في انهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون ان يرزأهم هذا الانفاق شيئاً ذا خطر . وليت أغنياءنا يصدقون وعد الله أو يمتحنون هذا الوعد . ليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ليتبينوا أيخلف الله عليهم ما انفقوا .

ولكن هيهات ! ليس الى ذلك من سبيل ؛ لأن أغنياءنا لا يقرأون ، وهم إذا قرأوا لا يؤمنون ، وهم إذا آمنوا لا يغامرون . وأهون عليهم ان يغامروا بالألوف في ناد من أندية الميسر وميدان من ميادين السباق، من أن يغامروا بالألوف في سبيل من سبل البر،ليتبينوا أيصدقهم الله ماوعدهم أم لا . والشيء الذي يملأ القلوب غيظاً والنفوس كمداً ، هو أن الحكومات ترى من حرص الأغنياء ، وبخلهم ومن تقصيرهم ما ترى ، ثم لا تبيح لنفسها من فرض الضرائب ما تتيح لها أن تعين المنكوب ، وتغيث الملهوف ، وتنقذ المحروب وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

صدقني ان الخير كل الخير للرجل الحازم الأديب ، أن يفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجيل . فإن أعجزه الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل من أن يفر إلى زمان آخر من أزمنة التاريخ .

## ١١

# مصر المريضة

لم اكد اصعد إلى السفينة وأستقر فيها ، وأفرغ من هذه المراسم البغيضة التي لا بد منها لكل مبحر مهما يكن الثغر الذي يبحر منه ، حتى علمت بأن مصر مريضة ، فاستمعت للنبأ غير حافل به ولا آبه له ولا ملق اليه بالا . فالنبأ منشور في إحدى الصحف الفرنسية التي تصدر في مارسيليا . وما اكثر ما ينشر عن مصر من هذه الأنباء التي لا تصور حقاً ولا تدل على شيء إلا ما يكون في نفس الذين أبرقوا بها من بغض لمصر او ميل إلى الكيد لها والنعي عليها والاسراف فيما يذاع عنها من أنباء السوء !

والصحف الفرنسية في هذه الأشهر الأخيرة قليلة العطف على مصر ، شديدة الضيق بها ، سريعة إلى التحدث عنها بما لا يحب المصريون ، تنتهز لذلك الفرص ان سنحت ، وتخلقها إذا لم تسنح . وقد كان بيننا وبين فرنسا تلك الخطوب التي احفظتنا على الفرنسيين وأغرتنا بهم ، واحفظت علينا الفرنسيين وأغرتهم بنا . فالقارىء المستبصر خليق ان يصطنع كثيراً من الحرص والاناة حين يقرأ انباء مصر في فرنسا ، وحين يقرأ انباء فرنسا في مصر . ولست اخفي على القارىء اني لم أكد اسمع ما نشر في تلك

الصحيفة من ان مصر مريضة ومن ان مرضها شيء يشبه ان يكون وباء الكوليرا ، ومن ان الحكومة المصرية قد اخذت تتأهب لمقاومة الوباء ، حتى رفعت كتفي وهززت رأسي وابتسمت ابتسامة ساخرة من هؤلاء الصحفيين الذين يريدون أن يكيدوا فلا يحسنون الكيد ، وان يكذبوا فلا يحسنون تخير الأكاذيب .

ومضى يوم ويوم والسفينة تجري إلى غايتها ، يعنف بها البحر حيناً ويرفق بها حيناً آخر ، دون ان يتحدث أحد الى احد بهذا النبأ السخيف الذي نشرته صحيفة سخيفة ، ومر بها القارئون مراً سريعا . ولكننا نمسي ذات يوم واذا اعلان قد ألصق في غير موضع من السفينة ينبه فيه المسافرون الى ان الماء العذب سيحجز عنهم ساعات من النهار ، لتستطيع السفينة أن تبلغ بيروت دون أن تأخذ شيئا من ماء مصر ، لأن وباء الكوليرا يمنعها من ذلك .

هنالك لم نرفع الأكتاف ولم نهز الرؤوس ، ولم نبتسم ابتسامات ساخرة ولا جادة ، وإنما نظر بعض المسافرين إلى بعض في صمت ، ثم أقبل بعض المسافرين على بعض يتساءلون . أما أنا فأعترف بأني لم أرفع كتفي ولم أهز رأسي ، وإنما أطرقت إلى الأرض ، وجعلت أتضاءل وأتضاءل ، ووددت لو نظر إلى من حولي من الناس فلم يروني ، ووددت لو تحدث الى من حولي من الناس فلم يسمعوا مني لحديثهم رجع الجواب . فلم يكن الشعور الذي وجدته في ذلك الوقت شعور الخوف ولا الشعور بالحاجة إلى الاحتياط ، وإنما كان شعوراً غريباً أستطيع الآن ان أقول إنه كان مزاجاً من الحزن والخزي جميعاً .

كان فيه الحزن على هذا البلد الذي كنا نراه خليقاً بالسعادة ، والذي

أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنرقى به إلى بعض هذه السعادة التي كنا نراه لها أهلا ، ثم ها نحن أولاء نرى الشقاء يصب عليه صبا ، والبلاء يأخذه من جميع أقطاره ، والآلام والنوائب تسعى اليه من كل وجه . نرى البؤس البائس يغمر الكثرة الكثيرة من أهله ، فيلابسهم ملابسة متصلة لا تقلع عنهم في ليل ولا نهار ، فهم جائعون عراة جهال أشقياء بهذا كله . ويزيدهم شقاء ان كثيراً منهم يعرفون هذا البؤس الذي هم فيه ، ويعرفون ان من حقهم ان ينعموا ، ويريدون أن يخلصوا من بؤسهم وان يحققوا لأنفسهم شيئاً من نعيم ، ولكنهم لا يبلغون ما يريدون ، ولا يعرفون كيف يبلغون ما يريدون ، ولا يجدون من يعينهم على ان يبلغوا ما يريدون .

وفيه الحزن على هذا البلد الذي كنا نراه أهلا للحرية والأمن ، والذي أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقه من الحرية والأمن ، ثم ها نحن اولاء ننظر فنراه مغلولاً لا يقدر على ان يتحرك ، معقود اللسان لا يقدر على ان ينطق ، مقفل القلب لا يقدر على ان يجد ما تجد الشعوب الحرة من الشعور بأيسر كرامة الانسان . ثم ننظر اليه فنجده من أجل ذلك خائفاً يترقب ، يخشى أن يعمل فيغضب سادته ، ويخشى أن يقول فيحفظ قادته ، ويخشى ان يسكت فيسوء به ظن المسيطرين على أمره ، فهو حائر بين الحركة والسكون ، وبين الكلام والصمت ، وبين الشعور والجمود .

وفيه الحزن بعد ذلك على هذا البلد الذي كنا نراه أهلا للاستقلال ، والذي أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له بحقه في هذا الاستقلال ، ثم نحن ننظر فاذا هو يرد عن حقه أعنف الرد وأقساه ،

وإذا المنتصرون الذين كانوا يترضونه ويتملقونه في امس القريب ، قد ائتمروا به وتنكروا له وكادوه كيداً ، ان صور شيئاً فانما يصور الجور والغدر والظلم والجحود .

وفيه الحزن بعد هذا وذاك لهذا البلد الذي صرفت عنه ضروب الخير في السياسة والثقافة والاقتصاد ، ومنحه الله مع ذلك إقليما معتدلا وأرضاً خصبة وسماء صافية ونهراً يفيض بالنعمة والنعيم ، وكان هذا كله خليقاً ان يكفل لأهله حياة مادية محتملة ، ويصرف عن أهله الآفات والعلل والادواء . ولكنا ننظر فاذا هو قد حرم حتى هذه الحياة ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تسعى اليه من أقصى الشرق ومن أقصى الجنوب ، فلا تجد من يردها عنه أو يحميه من شرها ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تهبط عليه من سمائه الصافية ، وتخرج له من أرضه الخصبة ، وتسعى اليه مع نهره الفياض ، وإذا أهله مرتع للآفات والعلل والأوبئة ، تصيب منه ماتشاء ! كما تشاء ! ومتى تشاء ! وحيث تشاء ! وإذا العالم كله يتلقى الأنباء في أقل من شهر بأن هذا البلد الذي خلق للعزة ما زال مستذلا ، وبأن هذا البلد الذي خلق للأمن ما زال خائفاً ، وبأن هذا البلد الذي خلق للحرية مازال مستعبداً ، ثم بأن هذا البلد الذي خلق للصحة مريض يفتك وباء الكوليرا بمدنه وقراه وبمن في مدنه وقراه كما يشاء ، ومتى يشاء ، وحيث يشاء .

ثم في هذا الشعور الذي أطرقت له الى الأرض وتضاءلت له وتضاءلت ، شيء عظيم كئيب من الحزي لهذا البلد الذي كنا نظنه قد تجاوز هـــذا الطور ، طور البلاد المتأخرة العتيقة الجاهلة التي تفتك بأهلها الأوبئة ، فاذا نحن نراه عرضة للوباء بل مرتعاً للوباء . وأي وباء ؟ وباء الكوليرا الذي كنا نظن أنه لن يعود الى مصر بعد أن فعل بها وبأهلها الأفاعيل في أول هذا القرن .

ليت شعري ماذا صنعت مصر ؟ وماذا صنع المصريون ؟ يقال انهم قد أنشأوا في هذا القرن كثيراً من المدارس ومعاهد العلم ، ومضوا في الحضارة الحديثة الى أبعد حد ممكن ؛ فلهم برلمان كما ان لغيرهم من الأمم برلمانات . ولهم وزارات منظمة كما ان لغيرهم من الأمم المتحضرة وزارات منظمة . ولهم وزارة قد خصصت لشؤون الصحة ، كما ان لغيرهم وزارة مخصصة لشؤون الصحة . ولهم عاصمة تتفوق على كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس الى عواصم الدول الكبرى ، يعجب بها اهل باريس وأهل لوندرة وأهل نيويورك إذا ألموا بها وأقاموا فيها . وهم بعد هذا كله قد نالوا من الترف ما صرف عن كثير من الأمم المتحضرة في هذه الأيام ، حتى أصبح ثراؤهم وترفهم واقبالهم على اللذات مضرب الأمثال في أقطار الأرض كلها . . كل هذا حق ، وكل هذا شيء نسمعه حين نزور باريس وغير باريس من المدن الكبرى في أوربا وفي أمريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق ايضاً أن العالم كله قد تلقى منذ شهر نبأ مقتضباً ولكنه على ذلك خطير أشد الخطورة ، تلقى النبأ بأن مصر التي أراد اسماعيل العظيم ان يراها جزءاً من أوربا قد ألم بها وباء الكوليرا وأقام فيها ، وانها تريد أن ترده فلا تستطيع له رداً ، وانها تستعين بالعالم المتحضر على وقاية أبنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكنت أظن أن هذا الشعور بالحزي مظهر من مظاهر الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكني لم أكد أبلغ مصر حتى عرفت اني لست مستأثراً من دون المصريين المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن . فكل مصري مثقف يقدر نفسه ويقدر وطنه ، ويستحضر ما بذل المصريون من الجهود في العصر

الحديث ليرقوا بوطنهم الى حيث ينبغي ان يكون من العزة والامن والحرية والصحة في الابدان والقلوب والعقول – كل مصري مثقف يجد هذا الشعور المر الذي وجدته ، والذي هو مزاج يأتلف من الحزن الممض والحزي الذي تطأطأ له الرؤوس .

وينظر الي من كان حولي من المسافرين ، وفيهم المصري والاجنبي ، فيروعهم ما يرون من هذا الوجوم الذي أغرق فيه اغراقاً غريبا ، فيظنون بي في اعماق أنفسهم الظنون ، ويسألني بعضهم محاولاً ان يهون علي الخطب وأن يردني الى شيء من الامن : ماذا أجد ! فلا ازيد على ان أذكره بأني أعرف وباء الكوليرا ، وبأني قد تحدثت عنه في بعض ما قرأ لي من كتب ، وبأني قد رأيت هذا الوباء ولما أتجاوز العاشرة ، فكان له في قلبي وحياتي كلها أبلغ الأثر وأعمقه وأبغضه . وتأثر الاطفال حين يكون عميقاً بغيضاً الى هذا الحد لا يفارقهم مهما تمتد لهم أسباب الحياة .

أصدقوني أم لم يصدقوني ؟ لا أدري ! ولكني أنا لم أصدق نفسي ؛ فلم يكن بين هذا الوجوم الذي اغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ما تثير في النفس من الحسرات ، صلة قريبة أو بعيدة في ذلك الوقت ، وانما نشأ هذا الوجوم عن هذا الشعور الحزين المستخذي الذي يجده المصري المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده وآمال كثير من نظرائه وأعمالهم وجهودهم تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الأعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا الى أنفسهم ولم يتحدث بعضهم الى بعض بأن آمالهم التي كانت بعيدة قد أخذت تقرب وتقرب حتى توشك أن تتحقق ، وبأن أعمالهم الشاقة قد أخذت تؤتي ثمراتها ، وبأن جهودهم العنيفة قد

أخذت تدنيهم من غاياتهم ، وبأنهم سيستطيعون بعد حين أن يقفوا بعد طول السعي ، وان ينظروا فاذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثاً ، ولم يبذلوا جهودهم في غير طائل ، وانما تلقوا من آبائهم وطناً ضعيفاً مبيضا عليلا ، فما زالوا به حتى ردوا اليه شيئا من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به في طريق العزة والكرامة أشواطا وأشواطا ، وهم يستطيعون أن يسلموه الى ابنائهم مطمئنين الى انهم قد نهضوا بالحق فأحسنوا النهوض ، وأدوا الواجب فأحسنوا الاداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضيعة العمل مصدر هذا الوجوم الذي اغرقت فيه ، ولكن لم اكن استطيع ان اتحدث بشيء من ذلك الى من كان حولي من الناس ؛ فهم كانوا مشغولين بأنفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم واعمالهم وجهودهم ، وعن هـــذه الفلسفة اليائسة التي تغمر قلوبهم في هذه الأيام السود . وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغي ان يتخذوا من ضروب التحفظ وألوان الاحتياط ، وهم على كل حال قـد عرفوا اني لا احب ان اسمع لحديث الكوليرا ولا ان اشارك فيـــه ، فأعفوني من هذا الحديث . ولكن الأنباء لم تعفيني منه ؛ فقد كانت نشرة السفينة تعلن الينا كل يوم عدد الاصابات وعدد الوفيات واماكن هذه وتلك . ولم نشرف على الاسكندرية حتى لم يكن لأهل السفينة كلهم حديث إلا هذا الوباء . وكنت اظن اني سأجد إذا بلغت مصر وجوما شائعا وحزنا منتشراً واستخذاء شاملا ، كما كنت اجد في نفسي مـــن الوجوم والحزن والاستخذاء . ولكني ابلغ الاسكندرية وألقى من شاء الله ان ألقى من المصريين ، فاذا حياتهم تجري على الوتيرة التي ألفناها ، وإذا الوباء يروعهم ولكنه لا يصرفهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، واذا

انباء السياسة تحزنهم ، ولكنها لا تلهيهم عن انفسهم ولا عن لذاتهم ، واذا انباء الاقتصاد تخيفهم ، ولكنها لا تشغلهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم . وأبلغ القاهرة فأرى فيها مثل ما رأيت في الاسكندرية ، وانما الذين تشغلهم انباء الوباء والسياسة والاقتصاد عن أنفسهم وعن لذاتهم قلة ضئيلة ليس أيسر من احصائها ؛ فأما من عدا هذه القلة فماضون في حياتهم كما تعودوا أن يمضوا : ألسنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة ، فلا أملك نفسي أن أتلو قول الله عزّ وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا أملك نفسي أن أتلو قول الله عز وجل : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . »

ويقبل العيد فاذا المترفون مقبلون على عيدهم كما أقبل عليهم عيدهم ، لا يشعرون بأن مئات من الأسر في مئات من المدن والقرى قد كانت تنتظر العيد كما كانوا ينتظرونه ، وتتشوق اليه اكثر مما كانوا يتشوقون اليه ، ولكن العيد أخلفهم موعده ، وأرسل اليهم الموت نائباً عنه ، وأرسل اليهم مع الموت حسرات وعبرات وزفرات ، وارسل اليهم مع هذا كله شقاء ملحاً وبؤساً مقيما . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ، وبأن مرضها هو النزيف المهلك ، ولكنها لا تنزف دماً وانما تنزف أبناءها وبناتها نزفاً . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به ولا يلتفتون اليه أو يشعرون به ويلتفتون اليه ولكنهم لا يحفلون الا بأنفسهم ولا يشفقون الا عليها ، كأنهم يستطيعون ان يعيشوا وينعموا

ويستمتعوا بالحياة اذا ضرب الحزن والبؤس والموت أطنابها على هذا البلد البائس الشقي .

هيهات ، هيهات ! انما ذلك تعليل النفس بالأماني الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وان المصريين بين اثنتين لا ثالثة لهما : فاما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها لا يحفلون الا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، واذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لا تبقي ولا تذر . واما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها في اعقاب الحرب العالمية الأولى قوامها التضامن والتعاون والتعاطف وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء وبين الأغنياء والفقراء وبين الأصحاء والمرضى ، واذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ، وعلى الكارثة حتى تنمحي ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

الى اي الطريقين يريد المترفون من المصريين ان يذهبوا : الى طريق الموت أم الى طريق الحياة ؟ ! سؤال ألقيه على نفسي حين أصبح ، وألقيه على نفسي حين أمسي ، وأضرع الى الله بين ذلك أن يجنبني اليأس ، ويعصمني من القنوط ؛ فـ « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . »

# فهرست الكتاب


صفحة

١ – صالح ..... ٥
٢ – قاسم ..... ٢٦
٣ – خديجة ..... ٤٤
٤ – المعتزلة ..... ٥٦
٥ – رفيق ..... ٧٣
٦ – صفاء ..... ٨٧
٧ – خطر ..... ١١٠
٨ – تضامن ..... ١١٥
٩ – ثقل الغنى ..... ١٢٢
١٠ – سخاء ..... ١٢٨
١١ – مصر المريضة ..... ١٣٥

ويستمتعوا بالحياة اذا ضرب الحزن والبؤس والموت أطنابها على هـذا البلد البائس الشقي .

هيهات ، هيهات ! انما ذلك تعليل النفس بالأماني الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وان المصريين بين اثنتين لا ثالثة لهما : فاما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها لا يحفلون الا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، واذن فليشقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لا تبقي ولا تذر . واما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها في اعقاب الحرب العالمية الأولى قوامها التضامن والتعاون والتعاطف وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء وبين الأغنياء والفقراء وبين الأصحاء والمرضى ، واذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ، وعلى الكارثة حتى تنمحي ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

الى اي الطريقين يريد المترفون من المصريين ان يذهبوا : الى طريق الموت أم الى طريق الحياة ؟ ! سؤال ألقيه على نفسي حين أصبح ، وألقيه على نفسي حين أمسي ، وأضرع الى الله بين ذلك أن يجنبني اليأس ، ويعصمني من القنوط ؛ فـ « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . »

# فهرست الكتاب

صفحة


١ – صالح ..... ٥
٢ – قاسم ..... ٢٦
٣ – خديجة ..... ٤٤
٤ – المعتزلة ..... ٥٦
٥ – رفيق ..... ٧٣
٦ – صفاء ..... ٨٧
٧ – خطر ..... ١١٠
٨ – تضامن ..... ١١٥
٩ – ثقل الغنى ..... ١٢٢
١٠ – سخاء ..... ١٢٨
١١ – مصر المريضة ..... ١٣٥

إهداء إلى النشء العربي، أرسل منه
سلم


DATE DUE

JAFET LIB. * 03 JAN 2003 * Circulation Dept.
JAFET LIB. * 13 FEB 2014 * Circulation Dept.
JAFET LIB. * 18 FEB 2013 * Circulation Dept. 4
JAFET LIB. * 24 JUN 2015 * Circulation Dept.
JAFET LIB. * 13 MAY 2013 * Circulation Dept. 4
JAFET LIB. * 30 SEP 2016 * Circulation Dept.

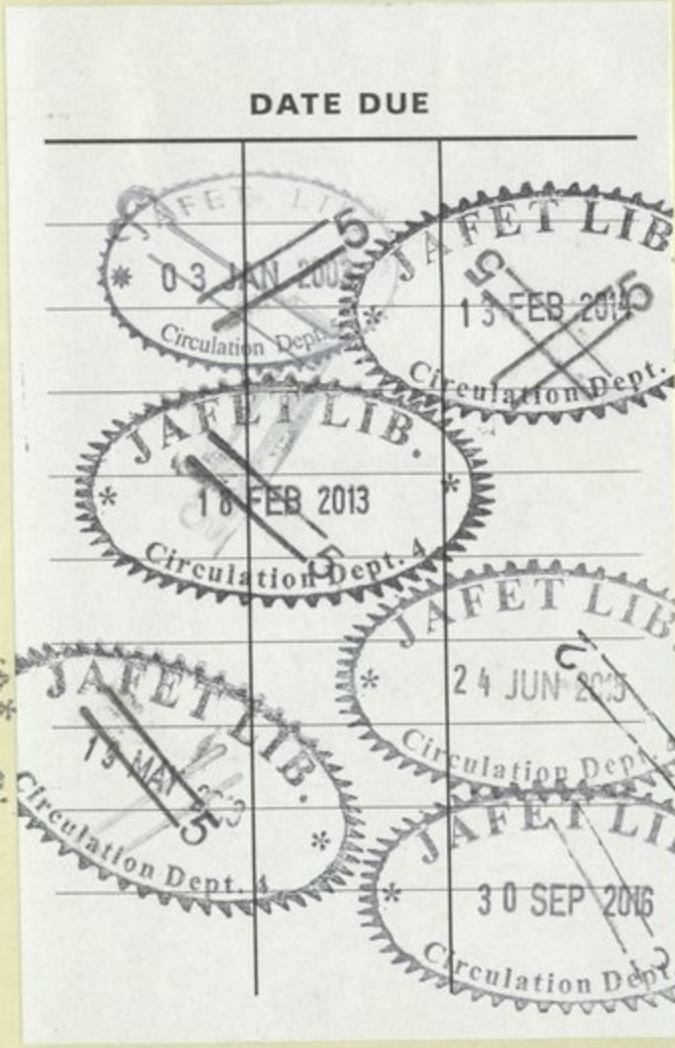

حسين ،طه
المعذبون في الارض
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037870

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT